سورة إبراهيم
مكية، اثنتان وخمسون آية، ثمانمائة وإحدى وثلاثون آية، ثلاثة آلاف وخمسمائة وتسعة وثلاثون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الر كِتَابٌ} أي السورة المسماة ب «الر» كتاب {أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ} يا أشرف الخلق {لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ} كافة بدعائك إياهم {مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ} أي ظلمات الكفر والضلالة والجهل {إِلَى ٱلنُّورِ} أي الإيمان وهذه الآية دالة على أن طرق الكفر والبدعة كثيرة وطريق الحق واحد {بِإِذْنِ رَبِّهِمْ} أي بتسهيله فإن الرسول لا يمكنه إخراج الناس من الظلمات إلى النور إلا بمشيئة الله وتخليقه {إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ} أي إلى دين الكامل القدوة المستحق للحمد في كل أفعاله {ٱللَّهِ}.

قرأه نافع وابن عامر بالرفع {ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلأَرْضِ} ملكاً وملكاً {وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} أي لما ترك الكفار عبادة الله الذي هو المالك للسموات والأرض ولكل ما فيهما وعبدوا ما لا يملك ضراً ولا نفعاً فالويل ثم الويل لمن كان كذلك أي يولولون أي يصيحون من عذاب غليظ ويقولون: يا ويلاه {ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلآخِرَةِ} أي يختارون الدنيا على الآخرة فهم ضالون {وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ} أي يمنعون الناس عن قبول دين الله فهم مضلون {وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} أي يطلبون لسبيل الله زيغاً ويقولون لمن يريدون إضلاله: إنها زائغة غير مستقيمة فهذا نهاية الضلال والإضلال {أُوْلَٰئِكَ} الموصوفون بتلك القبائح {فِى ضَلَٰلٍ} عن طريق الحق {بَعِيدٍ} أي في غاية البعد عنه فلا يوجد ضلال أكمل من هذا الضلال {وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ} أي إلا متكلماً بلغة من أرسل إليهم الرسول أياً كان وهم بالنسبة لغير سيدنا محمد خصوص عشيرة رسولهم وبالنسبة إليه كل من أرسل إليه من أصناف الخلق، لأن رسالته عامة لجميع الخلق وهو صلى الله عليه وسلم كان يخاطب كل قوم بلغتهم، وإن لم يثبت أنه تكلم باللغة التركية لأنه لم يصادف أنه خاطب أحداً من أهلها ولو خاطبه لكلمه بها {لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} ما كلفوا به بلغاتهم فيكون فهمهم لأسرار الشريعة أسهل ووقوفهم على المقصود أكمل {فَيُضِلُّ ٱللَّهُ} عن دينه {مَن يَشَآءُ} أي يمنع ألطافه تعالى به {وَيَهْدِى} لدينه بمنح الألطاف {مَن يَشَآءُ} فتقوية البيان لا توجب حصول الهداية فربما قوي البيان ولا تحصل الهداية وربما ضعف البيان، وحصلت الهداية لأن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى {وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} فلا

يغالب في مشيئته ولا يفعل شيئاً إلا لحكمة {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَٰتِنَآ} وهي معجزاته التي أظهرها لبني إسرائيل {أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ} أي ظلمات الكفر {إِلَى ٱلنُّورِ} أي نور الإيمان فإن مفسرة لأرسلنا {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ ٱللَّهِ} أي بنعم الله عليهم كانفلاق البحر وتظليل الغمام وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل فيما سلف من الأيام وببأس الله عليهم، وهي أيامهم تحت قهر فرعون، وبعذاب الله من كذب الرسل فيما سلف من الأيام كما نزل بعاد وثمود وغيرهم ليرغبوا في الوعد فيصدقوا وليحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ} أي في التذكير بالوقائع {لآيَٰتٍ} أي دلائل {لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}. وهذا تنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يخلو زمانه عن أحد الأمرين الصبر والشكر، لأن الحال إما أن يكون حال بلية أو حال عطية فإن جرى الوقت على ما يلائم طبعه كان شكوراً، وإن جرى بما لا يلائم طبعه كان صبوراً فالانتفاع بهذا التذكير لا يكون إلا لمن كان صابراً أو شاكراً {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ} أي مستقرة عليكم {إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ} أي وقت إنجائه إياكم منهم {يَسُومُونَكُمْ سُوۤءَ ٱلْعَذَابِ} أي يطلبون منكم الأعمال الشاقة {وَيُذَبِّحُونَ} تذبيحاً كثيراً {أَبْنَآءَكُمْ} صغاراً {وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ} أي يستخدمونهن كباراً بالاستحياء ويبقونهن منفردات عن الرجال {وَفِى ذَٰلِكُمْ} أي المذكور من الأفعال الفظيعة {بَلاۤءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} لا يطاق وفي الخلاص من ذلك نعمة عظيمة {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ} أي واذكروا حين أعلم ربكم في الكتاب وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه وإذ قال ربكم: {لَئِن شَكَرْتُمْ} يا بني إسرائيل نعمة الإنجاء وإهلاك العدو وغير ذلك بالإيمان الخالص والعمل الصالح {لأَزِيدَنَّكُمْ} نعمة إلى نعمة وحقيقة الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه ومزيد النعم الجسمانية أن كل من كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر كان وصول نعم الله إليه أكثر، ومزيد النعم الروحانية أن النفس إذا اشتغلت بمطالعة أنواع فضل الله وإحسانه أوجب ذلك الاشتغال تأكد محبة العبد لله تعالى، ثم قد يترقى العبد من ذلك الحالة إلى أن يصير حبه للمنعم شاغلاً له عن الالتفات إلى النعم فالشكر مقام شريف يوجب السعادة في الدين والدنيا. {وَلَئِن كَفَرْتُمْ} أي أنكرتم نعمتي فعسى يصيبكم عذابي {إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ} وكفران النعمة لا يكون إلا عند الجهل بكون تلك النعمة نعمه من الله تعالى والجاهل بها جاهل بالله والجهل بالله من أعظم أنواع العذاب {وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُواْ} نعمة تعالى ولم تشكروها {أَنتُمْ} يا بني إسرائيل {وَمَن فِى ٱلأَرْضِ جَمِيعًا} لم

يرجع ضرر الكفر إلا عليكم {فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ} عن شكر الشاكرين {حَمِيدٌ} أي مستحق للحمد في ذاته، وإن لم يحمده أحد بل كل ذرة من ذرات العالم ناطقة بحمده {أَلَمْ يَأْتِكُمْ} يا بني إسرائيل {نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ} أي من بعد هؤلاء المذكورين {لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ ٱللَّهُ} أي لا يعلم عددهم إلا الله لكثرتهم وهذه الجملة حال من الذين أو من الضمير المستكن في من بعدهم {جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَٰتِ} أي بالدلائل الواضحة على صدقهم وهذه الجملة تفسير لنبأ الذين من قبلكم {فَرَدُّوۤاْ أَيْدِيَهُمْ فِىۤ أَفْوَاهِهِمْ} أي وعض الكفار أيديهم من الغيظ من شدة نفرتهم عن استماع كلام الرسل أو وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين إلى الرسل أي كفوا عن هذا الكلام واسكتوا {وَقَالُوۤاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ} على ادعائكم فإنهم ما أقروا بأن أوامر الرسل ومنهياتهم من الله تعالى {وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ} عظيم {مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ} من الإيمان بالله والتوحيد. وقرىء «تدعونا» بإدغام النون {مُرِيبٍ} أي ذي قلق النفس.

{قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ} أي أفي وجود الله ووحدته شك وهو أظهر من كل ظاهر {فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ} أي مبدعهما وما فيهما {يَدْعُوكُمْ} إلى التوحيد بإرساله إيانا {لِيَغْفِرَ لَكُمْ} بسببه {مِّن ذُنُوبِكُمْ} في الجاهلية {وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى} أي يؤخر موتكم إلى وقت معين عند الله إن آمنتم وإلا عاجلكم الله بالاستئصال {قَالُوۤاْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا} من غير فضل {تُرِيدُونَ} بالدعوة {أَن تَصُدُّونَا} أي تصرفونا {عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا} أي عن عبادة ما استمر آباؤنا على عبادته {فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ} أي وإن كنتم رسلاً من الله فأتونا بحجة ظاهرة تدل على صحة ما تدعونه من النبوة حتى نترك ما لم نزل نعبده قالوا ذلك عناداً فإن الرسل قد أتوهم بالآيات الظاهرة {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ} مجاراة معهم في أول مقالتهم {إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} كما تقولون {وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ} بالنبوة فإنها عطية من الله من غير سبب {وَمَا كَانَ لَنَآ} أي ما استقام لنا {أَن نَّأْتِيَكُمْ بِسُلْطَٰنٍ} أي بحجة {إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ} أي بإرادته {وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ} ومقصود الرسل بهذا القول حمل أنفسهم على التوكل فإن الكفار أخذوا في التخويف حتى قالوا للرسل: توكلوا أنتم على الله حتى تروا ما يفعل بكم فقالت الرسل: {وَمَا لَنَآ أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا} أي أيّ عذر لنا في ترك التوكل على الله والحال أنه قد هدانا طرقه التي نعرفه بها ونعلم أن الأمور كلها بيده {وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا} بالعناد واقتراح

الآيات وغير ذلك فإن الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات {وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ} أمر الرسل في هذا أتباعهم بالتوكل بعد أمر أنفسهم به وذلك يدل على أن الآمر بالخير لا يؤثر إلا بعد الإتيان به فالإنسان إما أن يكون ناقصاً أو كاملاً، فالناقص إما أن يكون ناقصاً غير ساعٍ في تنقيص حال غيره فهو ضال، وإما أن يكون ساعياً في ذلك فهو مضل، وإما خالياً عن الوصفين فهو مهتد. والكامل إما أن يكون غير قادر على تكميل الغير فهو ولي، وإما قادراً على ذلك فهو نبي فالولي: هو الإنسان الكامل، والنبي: هو الإنسان الكامل المكمل. {وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} أي الغالون في الكفر {لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَآ} أي من مدينتنا {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا} أي لتصيرن داخلين في ملتنا {فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ} أي الرسل {رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ{وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلأَرْضَ} أي أرض الظالمين وديارهم {مِن بَعْدِهِمْ} أي من بعد هلاكهم {ذَٰلِكَ} أي إسكان الأرض ثابت {لِمَنْ خَافَ مَقَامِى} أي لمن خافني وخاف حفظي لأعماله {وَخَافَ وَعِيدِ} أي عذابي الموعود للكفار {وَ ٱسْتَفْتَحُواْ} أي طلب كل من الرسل والقوم النصرة على عدوه فنصر الله الرسل {وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ} أي خسر عند الدعاء من النصرة كل متكبر عن عبادة الله {عَنِيدٍ} أي منحرف عن الحق {مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ} أي من بعد هذه الخيبة جهنم يلقى فيها {وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ} أي مما يسيل من جلود أهل النار من القبح والدم {يَتَجَرَّعُهُ} أي يتناوله جرعة جرعة على الاستمرار لغلبة العطش والحرارة عليه {وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ} أي لا يكاد أن يجريه في الحلق بل يستمسكه فيه لمرارته ونتنه فوصوله إلى الجوف ليس بإجازة {وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ} أي يجد ذلك الكافر ألم الموت من كل مكان من أعضائه حتى من أصول شعره وإبهام رجله والحال أنه لا يموت من ذلك العذاب {وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} أي ومن بعد ذلك العذاب عذاب أشد مما هو عليه لا ينقطع ولا يخف بسبب الاعتياد كما في عذاب الدنيا {مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ} أي صفة أعمالهم الصالحة كصدقة وصلة رحم، وإعتاق رقاب وفداء أسير، وقري ضيف وبر والد، وإغاثة ملهوف {كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ} أي ذرت {بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} أي شديد الريح {لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ} أي لا يجدون يوم القيامة أثراً مما عملوا في الدنيا من ثواب أو تخفيف عذاب كما لا يوجد من الرماد شيء إذا ذرته الريح وذلك لفقد شرط الأعمال وهو الإيمان {ذَٰلِكَ} أي عملهم {هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ} أي الضياع البعيد عن نيل الثواب {أَلَمْ تَرَ} أي قد أخبرت أيها

المخاطب {أَنَّ ٱللَّـهَ خَلَـقَ ٱلسَّـمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ بِـ ٱلْحقِّ} أي ملتبساً بالحكمة وليس عبثاً. وقرأ حمزة والكسائي «خالق السمٰوات» على اسم الفاعل والإضافة {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ} أي يهلككم بالمرة {وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} سواكم أطوع لله منكم.

{وَمَا ذٰلِكَ} أي إذهابكم والإتيان ببدلكم {عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ} أي بمتعسر لأن القادر لا يصعب عليه شيء {وَبَـرَزُواْ لِلَّـهِ جَمِيعًـا} أي ويخرجون من قبورهم إلى الله ليحاسبهم ويجازيهم على قدر أعمالهم {فَقَـالَ ٱلضُّـعَفَاءُ} في الرأي وهم السفلة {لِلَّـذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ} عبادة الله وهم أكابرهم {إِنَّا كُنَّا لَكُـمْ تَبَعًـا} في الدنيا في تكذيب الرسل والإعراض عن نصيحتهم {فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُـونَ عَنَّـا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ} أي فهل أنتم في هذا اليوم دافعون عنا بعض شيء هو عذاب الله؟ {قَـالُواْ} أي القادة: {لَـوْ هَـدَانَا ٱللَّـهُ لَهَدَيْنَاكُمْ} أي لو خلصنا الله من العقاب وهدانا إلى طريق الجنة لهديناكم طريق النجاة ودفعنا عنكم بعض العذاب ولكن سد الله عنا طريق الخلاص {سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ} مما لقينا {أَمْ صَبَرْنَا} على ذلك أي الصياح، فالتضرع والصبر مستويان علينا في عدم الإنجاء {مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ} أي محل هرب من العقاب {وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ} أي يقول إبليس رئيس الشياطين خطيباً في محفل الأشقياء من الثقلين {لَمَّا قُضِىَ ٱلأَمْرُ} أي فرغ منه بأن استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وقد قالوا له: اشفع لنا فإنك أضللتنا {إِنَّ ٱللَّـهَ وَعَـدَكُمْ وَعْـدَ ٱلْحَـقِّ} وهو الوعد بالبعث والجزاء على الأعمال فصدق في وعده إياكم {وَوَعَـدتُّكُمْ} أن لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار ولئن كان فالأصنام شفعاؤكم {فَأَخْلَفْتُكُمْ} أي كذبت لكم وتبين خلف وعدي {وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَٰنٍ} أي حجة تدل على صدقي أو قهر فأقهركم على الكفر والمعاصي {إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ} أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي {فَ ٱسْتَجَبْتُمْ لِى} أي أجبتموني {فَلاَ تَلُومُونِى} بوعدي إياكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر {وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمْ} حيث أجبتموني باختياركم حين دعوتكم بلا دليل فما كان مني إلا الدعاء وإلقاء الوسوسة وقد سمعتم دلائل الله، وجاءتكم الرسل، وكان من الواجب عليكم أن لا تغتروا بقولي فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم عليكم لا علي في هذا الباب {مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ} أي بمغيثكم من عذابكم {وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِىَّ} أي بمغيثي من عذابي {إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ} أي إني الآن تبرأت من إشراككم إياي مع الله في الطاعة من قبل هذا اليوم، أي في الدنيا أي، لأن الكفار كانوا يطيعون إبليس في أعمال

الشر كما يطاع الله في أعمال الخير. ومعنى إشراكهم إبليس بالله تعالى طاعتهم لإبليس في تزيينه لهم في عبادة الأوثان. {إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} هذا تمام كلام إبليس قطعاً لأطماع أولئك الكفار عن الإغاثة فالوقف على من قبل حسن أو ابتداء كلام من حضرة الله تعالى إيقاظاً للسامعين حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم فالوقف على من قبل تام كما هو عند أبي عمرو {وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَاتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ} متعلق بأدخل أي أدخلتهم الملائكة بأمر ربهم {تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ} فإن بعضهم يحيي بعضاً بهذه الكلمة، والملائكة يحيونهم بها والرب الرحيم يحييهم أيضاً بهذه الكلمة. وقرأ الحسن «وأدخل» على صيغة التكلم وعلى هذه القراءة فقوله: «بإذن» ربهم متعلق «بتحيتهم» أي تحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم.

{أَلَمْ تَرَ} أي ألم تخبر يا أشرف الخلق {كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً} أي كيف جعل الله كلمة طيبة وهي لا إله إلا الله مثلاً وهي {كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} وهي النخلة {أَصْلُهَا ثَابِتٌ} أي ضارب بعروقه في الأرض {وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ} أي أعلاها في الهواء {تُؤْتِى أُكُلَهَا} أي تعطي هذه الشجرة ثمرها {كُلَّ حِينٍ} أي كل وقت وكل ساعة ليلاً أو نهاراً شتاء أو صيفاً، فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح، والخلال والبسر، والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى حين الطري الرطب فأكلها دائم في كل وقت {بِإِذْنِ رَبِّهَا} أي بإرادة خالقها كذلك كلمة التوحيد ثابتة في قلب المؤمن بالبرهان وعمل المؤمن المخلص يرفع إلى السماء وفي كل حين يعمل خيراً بأمر ربه وحكمة تمثيل كلمة التوحيد بالشجرة أن الشجرة تكون بثلاثة أشياء عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال كذلك التوحيد يكون بثلاثة أشياء تصديق بالقلب، وقول باللسان وعمل بالأبدان {وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلأَمْثَالَ} أي يبين الله صفات التوحيد {لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} أي يتعظون لأن في ضرب الأمثال تصويراً للمعاني فيحصل به الفهم التام والوصول إلى المطلوب {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ} وهي الشرك بالله {كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ} كالحنظل والكشوث وهي نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض { ٱجْتُثَّتْ} أي استؤصلت {مِن فَوْقِ ٱلأَرْضِ} لكون عروقها في وجه الأرض أي ليس لها أصل ولا عرق يغوص في الأرض فتسميتها شجرة للمشاكلة فكذلك الشرك بالله ليس له حجة ولا قوة {مَا لَهَا مِن قَرَارٍ} أي ثبات على وجه الأرض فلا يقبل مع الشرك عمل {يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ

ٱلثَّابِتِ} أي الذي يثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم وهو شهادة أن لا إله إلا الله {فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا} فلا يزالون عن تلك الشهادة إذا افتتنوا في دينهم كزكريا ويحيى، وجرجيس، وشمسون والذين فتنهم أصحاب الأخدود {وَفِى ٱلآخِرَةِ} أي في القبر حين يقال له: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام؟ ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم. وحكي أن سهل بن عمار العملي يقول: رأيت يزيد بن هارون في منامي بعد موته فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أتاني في قبري ملكان فظان فقالا: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فأخذت بلحيتي البيضاء فقلت لهما: ألمثلي يقال هذا وقد علّمت الناس جوابكما ثمانين سنة فذهبا، وكلما كانت مواظبة العبد على ذكر لا إله إلا الله وعلى التأمل في دقائقها أتم وأكمل كان رسوخ هذه المعرفة في قلبه بعد الموت أقوى وأكمل. قال ابن عباس: من داوم على الشهادة في الحياة الدنيا يثبته الله عليها في قبره ويلقنه إياها وإنما فسر الآخرة ههنا بالقبر، لأن الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا ودخل في أحكام الآخرة {وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي يصرف الله المشركين عن قول لا إله إلا الله في الدنيا وفي القبر وعند خروجهم من القبور فإنهم إذا سئلوا في قبورهم قالوا: لا ندري {وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ} من الإضلال والتثبيت ومن صرف منكر ونكير.

{أَلَمْ تَرَ} أي ألم تنظر {إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا} كأهل مكة حيث أسكنهم الله حرمه الآمن، ووسَّع عليهم أبواب رزقه، وشرَّفهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين فقتلوا وأسروا يوم بدر {وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ} أي أنزل بعض قريش المطعمون يوم بدر وهم بنو أمية وبنو المغيرة أتباعهم، وهم بقية قريش بسبب إضلالهم إياهم {دَارَ ٱلْبَوَارِ} أي دار الهلاك {جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا} أي يدخلونها يوم القيامة مقاسين لحرها {وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ} أي بئس المنزل جهنم {وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا} أي أشباهاً وشركاء في التسمية والحظ والعبادة {لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ} الذي هو التوحيد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء فاللام للعاقبة. والباقون بضمها فاللام إما للعاقبة لأن عبادة الأوثان سبب يؤدي إلى الضلال، أو للتعليل فالذين اتخذوا الأوثان يريدون إضلال غيرهم وتحقيق لام العاقبة أن المقصود من الشيء لا يحصل إلا في آخر المراتب كما قيل: أول الفكر آخر العمل وكل ما حصل في العاقبة كان شبيهاً بالأمر المقصود في هذا المعنى {قُلْ تَمَتَّعُواْ} بعبادتكم الأوثان وعيشوا بكفركم وهذا الأمر تهديد لهم {فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ} أي مرجعكم يوم القيامة {إِلَى ٱلنَّارِ} ليس إلا {قُل

لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَاةَ} وهذان إما مجزومان في جواب أمر محذوف أي قل لهم أقيموا الصلاة فإن قلت لهم ذلك يقيموا الصلاة أو مجزومان بلام أمر مقدر، أي ليقيموا الصلاة أي الواجبة، {وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ} أي أعطيناهم {سِرًّا وَعَلَانِيَةً} أي أنفقوا إنفاق سر وعلانية. والمراد حث المؤمنين على الشكر لنعم الله تعالى بالعبادة البدنية والمالية، وعلى ترك التمتع بمتاع الدنيا كما هو صنيع الكفرة {مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ} أي معاوضة {فِيهِ وَلاَ خِلَٰلٌ} أي مصادقة تنفع وهو يوم القيامة وإنما الانتفاع فيه للمؤمن بالعمل الصالح، أو الإنفاق لوجه الله تعالى {ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ} وهما أصلان في دلالة وجود الصانع {وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ} أي السحاب {مَآءً} فلولا السماء لم يصح إنزال الماء منها ولولا الأرض لم يوجد ما يستقر الماء فيه {فَأَخْرَجَ بِهِ} أي بذلك الماء {مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ} تعيشون به فإذا علم المكلفون أن في تحصيل هذه المنافع القليلة تحمل المتاعب فالمنافع العظيمة الدائمة في الآخرة أولى بتحمل المشاق في طلبها {وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ} أي السفن {لِتَجْرِىَ} أي الفلك جرياً تابعاً لإرادتكم {بِأَمْرِهِ} أي بمشيئته التي نيط بها كل شيء فإن الانتفاع بما ينبت من الأرض لا يكمل إلا بوجود الفلك لنقله إلى البلد الآخر المحتاج أهلها إليه {وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلأَنْهَٰرَ} أي لتنتفعوا بها في نحو الشرب وسقي الزراعات {وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ دَآئِبَينَ} أي جاريين فيما يعود إلى مصالح العباد لا يفتران في سيرهما إلى انقضاء عمر الدنيا ولولاهما لاختلت مصالح العالم بالكلية، {وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ} لمنامكم ومعاشكم {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} أي كل ما لم تصلح أحوالكم إلا به فكأنكم سألتموه أو من كل ما طلبتموه بلسان الحال. {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ} التي أنعم الله بها عليكم {لاَ تُحْصُوهَا} أي لا تطيقوا على عد أنواعها فضلاً عن عد أفرادها فإنها غير متناهية {إِنَّ ٱلإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} أي فإن الإنسان مجبول على النسيان والملالة، فإذا وجد نعمة نسيها في الحال، وترك شكرها فذلك ظلم، وإن لم ينسها فإنه يملها فيقع في كفران النعمة، وأيضاً إن نعم الله كثيرة فمتى حاول الإنسان التأمل في بعضها غفل عن الباقي.

{وَإِذْ قَالَ إِبْرٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ} أي مكة {آمِنًا} من الخراب ومن الخوف لمن التجأ إليه {وَ ٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلأَصْنَامَ} أي ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الإسلام ومن البعد عن عبادة الأصنام. أو المراد أعصمنا من الشرك الخفي وهو عند الصوفية تعليق القلب بالوسائط وبالأسباب الظاهرة {رَبِّ

إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ} أي إن الأصنام ضلَّ بهن كثير من الناس أي لما حصل الإضلال عند عبادتها نسب إليها {فَمَن تَبِعَنِى} في ديني واعتقادي {فَإِنَّهُ مِنِّى} أي فإنه جار مجرى بعضي لقربه مني {وَمَنْ عَصَانِى} أي خالف ديني {فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي فإنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر إلى الإسلام {رَّبَّنَآ إِنَّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى} أي بعض ذريتي إسماعيل ومن سيولد له {بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ} أي في واد ليس فيه زرع {عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ} أي المعظم الذي يهابه كل جبار أو الذي منع من الطوفان وهو مكة شرفها الله تعالى فلعله قال ذلك باعتبار ما سيؤول إليه أو باعتبار ما كان {رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ} أي يا ربنا إنما أسكنت قوماً من ذريتي وهم إسماعيل وأولاده في هذا الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا الصلاة نحو الكعبة {فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ} أي فاجعل قلوب بعض الناس تسرع إلى ذريتي شوقاً إليهم بنقل المعاشات إليهم بسبب التجارات بالنسك والطاعة لله تعالى.

وقرأ العامة «تهوي» بكسر الواو، وقرأ أمير المؤمنين علي، وزيد بن علي، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، ومجاهد بفتح الواو أي تحبهم. وقرىء على البناء للمفعول أي اجعل قلوب بعض الناس ممالة إليهم، {وَٱرْزُقْهُمْ} أي ذريتي {مِّنَ ٱلثَّمَرٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} تلك النعمة فإن إبراهيم عليه السلام إنما طلب تيسير المنافع على أولاده لأجل أن يتفرغوا لإقامة الصلاة وأداء الواجبات.

{رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ} من الحاجات وغيرها فلا حاجة بنا إلى الدعاء، إنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك وافتقاراً إلى ما عندك {وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فَى ٱلأَرْضِ وَلاَ فِى ٱلسَّمَآءِ} وهذه الجملة من كلام الله تعالى تصديقاً لإبراهيم عليه السلام، وهي اعتراض بين كلامي إبراهيم، فالوقف على «نعلن» حسن كالوقف على «في السماء» { ٱلْحَمْدُ للَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ} أي حال كوني بعد الكبر {إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ}. روي أنه لما ولد إسماعيل كان سن إبراهيم تسعاً وتسعين سنة، ولما ولد إسحاق كان سنه مائة واثنتي عشرة سنة {إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ} أي لمجيب الدعاء وهو عالم بالمقصود {رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ} أي مثابراً عليها {وَمِن ذُرِّيَتِى} أي واجعل بعض ذريتي كذلك {رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ}. وقال ابن عباس: أي عبادتي. {رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى} ما فرط مني من ترك الأولى في باب الدين وغير ذلك {وَلِوَالِدَىَّ} وهذا الاستغفار قبل تبين أمرهما. وقرأ ابن حسين «ولوالدي» بسكون الياء. وقرأ الحسين بن علي ومحمد وزيد ابنا

علي بن الحسين «ولولـدي» بفتحـات؛ وهمـا إسـماعيل وإسـحاق. وقرأ ابن يعمر «ولولدي» بضم الواو وسـكون اللام وكسـر الـدال؛ جمع ولد فالقرءات الشاذة ثلاثة {وَلِلْمُؤْمِنِينَ} كافـة أي مـن ذريـة إبراهيم وغيرهم ففي هذا الدعاء بشارة عظيمـة لجميـع المـؤمنين بالمغفرة، والله تعـالى لا يـرد دعـاء خليلـه إبراهيـم عليـه السـلام. {يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ} أي يوم يثبت محاسبة أعمال المكلفين على وجه العدل {وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ} يا أشرف الخلق {غَٰفِلاً عَمَّـا يَعْمَـلُ ٱلظَّٰلِمُونَ} أي تارك عقوبة المشـركين بمـا عملـوا والمـراد تثـبيته صلى الله عليه وسلم على ما كان عليـه مـن أنـه صـلى اللـه عليـه وسلم لا يحسب الله غافلاً والمقصود تنبيهه على أنه تعـالى لـو لـم ينتقم للمظلوم من الظالم لزم عليه تعالى أحد الأمـور الثلاثـة: إمـا أن يكون غافلاً عن ذلك الظالم، أو عـاجزاً عـن الانتقـام، أو راضـياً بـذلك الظلـم. وكـل ذلـك محـال عليـه تعـالى فـامتنع أن لا ينتقـم للمظلوم من الظالم {إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ} بلا عذاب الاستئصال {لِيَوْمٍ} أي لأجل يوم {تَشْخَصُ فِيـهِ ٱلأَبْصَـٰرُ} أي تبقـى مفتوحـة لا تتحـرك أجفانهم للدهشة {مُهْطِعِينَ} أي مسرعين نحو البلاء ناظرين إلـى الـداعي وهـو جبريـل حيـث يـدعو إلـى الحشـر مـن صـخرة بيـت المقدس {مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ} أي رافعـي رؤوسـهم إلـى السـماء لا ينظر أحـد إلـى أحـد {لاَ يَرْتَـدُّ إِلَيْهِـمْ طَرْفُهُـمْ} أي يـدوم شـخوص أبصارهم لدوام الحيرة في قلوبهم {وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ} أي خالية عـن جميع الأفكار لعظم ما ينالهم من الحيرة لما تحققـوه مـن العقـاب وحصول هذه الصفات الخمس عند المحاسبة {وَأَنـذِرِ ٱلنَّـاسَ يَـوْمَ يَـأْتِيهِمُ ٱلْعَـذَابُ} أي وخـوف الكفـار يـا أكـرم الرسـل أهـوال يـوم القيامة {فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوۤاْ} أي كـل مـن ظلـم بالشـرك {رَبَّنَـآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ} أي أخر العذاب عنا وردنا إلى الدنيا وأمهلنـا إلى حد من الزمان قريب {نُّجِبْ دَعْوَتَكَ} لنا علـى ألسـنة الرسـل إلى التوحيد {وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ} فيما جاؤونا به أي نتدارك في الدنيا ما فاتنا من إجابة الدعوة واتباع الرسل فيقول الله لهم توبيخاً {أَوَلَـمْ تَكُونُوۤاْ أَقْسَمْتُمْ} أي أطلبتم هذا المطلوب وهل لـم تكونـوا خلفتـم {مِّن قَبْلُ} هذا اليوم أي في الدنيا {مَـا لَكُـمْ مِّـن زَوَالٍ} أي كـانوا يقولون بالحلف لا زوال لنا من هذه الحيـاة إلـى حيـاة أخـرى ومـن هذه الدار إلى دار المجازاة، أما زوالهم من غنـى إلـى فقـر، ومـن شباب إلـى هـرم، ومـن حيـاة إلـى مـوت فلا ينكرونـه {وَسَـكَنتُمْ} معطـوف علـى أقسـمتم {فِـى مَسَـٰكِنِ ٱلَّـذِينَ ظَلَمُوۤاْ أَنفُسَـهُمْ} بالكفر والمعصية وهم قوم نوح وعـاد وثمـود، لأن مـن شـاهد هـذه الأحوال وجب عليه أن يعتبر فإذا لـم يعتـبر كـان مسـتحقاً للتقريـع

{وَتَبَيَّنَ لَكُمْ} أي وظهر لكم حالهم بمشاهدة الآثار وبتواتر الأخبار {كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ} من الإهلاك بما فعلوا من الفساد. وقرىء «وبين» على المجهول، وقرىء أيضاً «وتبين» بنون المتكلم، أي أولم نبين لكم. {وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلأَمْثَالَ} أي بينا لكم الأمثال في القرآن مما يعلم به أنه تعالى قادر على الإعادة كما قدر على الابتداء، وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل {وَقَدْ مَكَرُواْ} أي المهلكون {مَكْرَهُمْ} حال من الضمير في فعلنا بهم أي فعلنا بهم ما فعلنا، والحال أنهم قد مكروا في إبطال الحق مكرهم الذي جاوزوا فيه كل حد معهود بحيث لا يقدر عليه غيرهم {وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ} أي أخذه بهم بالعذاب الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون وهذه الجملة حال من الضمير في مكروا {وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ} أي وإن كان مكرهم في غاية العظم والشدة بحيث تزول منه الجبال فإن وصلية. وقيل: «إن» نافية و «اللام» لتأكيدها، وينصره قراءة ابن مسعود رضي الله عنه وما كان مكرهم فالجملة حينئذ حال من الضمير في «مكروا» أي ومكروا مكرهم. والحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الشرائع والمعجزات. وقيل: هي مخففة من «أن» أي وأنه كان مكرهم ليزول منه ما هو كالجبال في الثبات من الشرائع والمعجزات. وقرأ الكسائي وحده «لتزول» بفتح اللام الفارقة ورفع الفعل. فالجملة حينئذ حال من قوله تعالى: {وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ} أي وعند الله المكر بهم. والحال أن مكرهم في غاية القوة بحيث تزول منه الجبال.

{فَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ} تفريع على ولا تحسبن الله إلخ فكأنه قيل: وإذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة وأخبرناك بما يلقونه من الشدائد وبما يسألونه من الرد إلى الدنيا وبما أجبناهم به وقرعناهم بعدم تأملهم في أحوال من سبقهم من الأمم الذين أهلكناهم بظلمهم بعدما وعدنا رسلهم بإهلاكهم فدم على ما كنت عليه من اليقين بعدم إخلافنا رسلنا وعدنا فمخلف إما متعدٍ لاثنين مضاف لمفعوله الثاني، وإما متعدٍ لواحد مضاف لمفعوله ورسله مفعول لوعده {إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ} أي غالب لا يماكر {ذُو ٱنتِقَامٍ} لأوليائه من أعدائه {يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلأَرْضُ غَيْرَ ٱلأَرْضِ} أي تغير في صفاتها فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوَّى فلا يرى فيها عوج ولا أمت {وَٱلسَّمَٰوٰتُ} أي تبدل السمٰوات غير السمٰوات فتنتثر كواكبها، وتكسف شمسها، ويخسف قمرها وتكون السماء أبواباً، وذكر شبيب بن إبراهيم بن حيدرة أن الأرض والسمٰوات يبدلان كرتين إحداهما قبل نفخة الصعق فتنتثر أولاً

الكواكب وتكسف الشمس والقمر، وتصير السماء كالمهل، ثم تكشط عن رؤوسهم، ثم تسير الجبال، ثم تموج الأرض، ثم تصير البحار نيراناً، ثم تنشق الأرض من قطر إلى قطر، فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق طويت السماء وبدلت السماء سماء أخرى من ذهب، ودحيت الأرض؛ أي مدت مد الأديم، وأعيدت كما كانت فيها القبور أو البشر على ظهرها وفي بطنها، وتبدل تبديلاً ثانياً إذا وقفوا في المحشر فتبدل لهم ساهرة يحاسبون عليها وهي أرض بيضاء من فضة، وحينئذ يقوم الناس على الصراط، وعلى متن جهنم؛ وهي أرض من نار، فإذا جاوزوا الصراط وحصل أهل الجنان من وراء الصراط في الجنان وأهل النيران في النار بدلت الأرض خبزاً نقياً فأكلوا من تحت أرجلهم، وعند دخولهم الجنة كانت الأرض قرصاً واحداً يأكل منه جميع من دخل الجنة وإدامهم زيادة كبد ثور الجنة وزيادة كبد النون. وحاصل كلام القرطبي أن تبديل هذه الأرض بأرض أخرى من فضة يكون قبل الصراط وتكون الخلائق إذ ذاك مرفوعة في أيدي ملائكة سماء الدنيا، وأن تبديل الأرض بأرض من حبز يكون بعد الصراط وتكون الخلائق إذ ذاك على الصراط وهذه الأرض خاصة بالمؤمنين عند دخولهم الجنة. وقال الرازي: لا يبعد أن يقال: المراد من تبديل الأرض والسموات هو أنه تعالى يجعل الأرض جهنم، ويجعل السمٰوات الجنة {وَبَرَزُواْ للَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ} أي واذكروا يوم يبرز الخلائق جميعاً من قبورهم للحساب والجزاء {وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ} أي وتبصر يا أكرم الخلق الكافرين {يَوْمَئِذٍ} أي يوم إذ برزوا له تعالى {مُّقَرَّنِينَ} أي قرن بعضهم ببعض بحسب مشاركتهم في العقائد والأعمال {فِى ٱلأَصْفَادِ} أي القيود {سَرَابِيلُهُم} أي قمصانهم {مِّن قَطِرَانٍ} وهو ما يتحلب من شجر الأبهل فيطبخ ويطلى به الإبل الجربي. فيحرق الجرب بحرارته وقد تصل إلى الجوف. والمراد أنه تطلى به جلود أهل النار ليجتمع عليهم الأنواع الأربعة من العذاب لذع القطران ووحشة لونه ونتن ريحه، وإسراع النار في جلودهم {وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمْ ٱلنَّارُ} أي تعلوها النار وخصَّ الله هذا العضو بظهور آثار العقاب، كما خصَّ القلب بذلك في قوله تعالى: {نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلأَفْئِدَةِ} (الهمزة: 6،7) لأن الرأس محل الفكر والوهم والخيال، والقلب موضع العلم والجهل، ولا يظهر أثر هذه الأحوال إلا في الوجه ولأنه مجمع الحواس ولخلوه عن القطران ويفعل الله بهم تلك الأمور الثلاثة {لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ} مجرمة {مَّا كَسَبَتْ} من أنواع الكفر والمعاصي جزاء موافقاً لعملها {إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ} فلا يشغله حساب عن حساب ولا يظلمهم

ولا يزيد على عقابهم الذي يستحقونه {هَـٰذَا} أي الموعظة التي في هذه السورة {بَلَٰغٌ} أي كفاية في الموعظة {لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ} عطف على مقدر متعلق ببلاغ أي كفاية لهم لينتصحوا ولينذروا به أي بهذا البلاغ {وَلِيَعْلَمُوٓاْ} بما فيه من الأدلة {أَنَّمَا هُوَ} أي الله {إِلَٰهٌ وَاحِدٌ} لا شريك له {وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلأَلْبَٰبِ} أي وليتعظوا بذلك وهذه الآيات مشعرة بأن التذكير بهذه المواعظ يوجب الوقوف على التوحيد والإقبال على العمل الصالح.

سورة الحجر
مكية، تسع وتسعون آية، وستمائة وأربع وخمسون كلمة، وألفان وسبعمائة وسبعون حرفاً

{ الرَ} قال ابن عباس: أي أنا الله أرى {تِلْكَ ءايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ} أي تلك الآيات آيات ذلك الكتاب الكامل في كونه كتاباً، وفي كونه قرآناً مفيداً للبيان لسبيل الرشد والغي، وللفرق بين الحق والباطل؛ وهو الكتاب الذي وعد الله تعالى به محمداً صلى الله عليه وسلم، وتنكير القرآن للتفخيم كتعريف الكتاب. فالمقصود الوصفان، وقيل: «الواو» للقسم أي أقسم بالقرآن المبين بالحلال والحرام وبالأمر والنهي {رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ} أي إن الكافر بالقرآن كلما رأى حالاً من أحوال العذاب ورأى حالاً من أحوال المسلم تمنى كونه في الدنيا منقاداً لحكمه، ومذعناً لأمره وذلك عند الموت، وعند اسوداد وجوه الكفار، وعند دخولهم النار، وعند رؤيتهم خروج عصاة المسلمين من النار. ف «ربَّ» للتكثير باعتبار مرات التمني، وللتقليل باعتبار أزمان الإفاقة فأزمان إفاقتهم قليلة بالنسبة لأزمان الدهشة، وكونه للتقليل أبلغ في التهديد. ومعناه أنه يكفيك قليل الندم في كونه زاجراً لك عن هذا العمل فكيف كثيره وأيضاً إنه يشغلهم العذاب عن تمني ذلك إلا في القليل. وقرأ نافع وعاصم «ربما» بتخفيف الباء. والباقون بالتشديد {ذَرْهُمْ} أي اترك كفار مكة يا أشرف الرسل عن النهي عمّا هم عليه بالنصيحة إذ لا سبيل إلى ارعوائهم عن ذلك بل مرهم بتناول ما يتناولونه {يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ} أي يأخذوا حظوظهم من دنياهم فتلك أخلاقهم ولا خلاق لهم في الآخرة {وَيُلْهِهِمُ ٱلأَمَلُ} أي يشغلهم الأمل عند الأخذ بحظهم عن الإيمان والطاعة {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} عند الموت وفي القبر ويوم القيامة ماذا يفعل بهم وعن علي رضي الله عنه أنه قال: إنما أخشى عليكم اثنين طول الأمل واتباع الهوى، فإن طول الأمل

ينسي الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق {وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ} من القرى بالخسف بها وبأهلها كما فعل ببعضها وبإخلائها عن أهلها غب إهلاكهم بعذاب الإستئصال كما فعل ببعض آخر {إِلاَّ وَلَهَا} في ذلك الشأن {كِتَٰبٌ مَّعْلُومٌ} أي أجل مؤقت لهلاكها مكتوب في اللوح المحفوظ لا يغفل عنه {مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ} من الأمم المهلكة وغيرهم {أَجَلَهَا} المكتوب في كتابها فلا يجيء هلاكها ولا موتها قبل مجيء كتابها {وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ} عن أجلها {وَقَالُواْ} أي كفار مكة عبد الله بن أمية المخزومي وأصحابه استهزاء للنبي صلى الله عليه وسلم: {يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ} أي القرآن في زعمه {إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} أي إنك لتقول قول المجانين حتى تدعي أن الله تعالى نزل عليك القرآن {لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰئِكَةِ} أي هلا أتيتنا بالملائكة يشهدون بصحة نبوتك ويعضدونك في الإنذار {إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّدِقِينَ} في مقالتك إنك نبي وإن هذا القرآن من عند الله فأجاب الله تعالى عن قولهم بقوله تعالى: {مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰئِكَةَ إِلاَّ بِٱلْحَقِّ} أي فالحق في حق الكفار تنزيل الملائكة بعذاب الاستئصال كما فعل بأمثالهم من الأمم السالفة لا التنزيل بما اقترحوا من أخبارها لهم بصدق الرسول فإن ذلك من باب التنزيل بالوحي الذي لا يكاد يفتح على غير الأنبياء من أفراد كل المؤمنين فكيف على أولئك الكفرة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم «ما ننزل» بنون المتكلم وبكسر الزاي المشددة، «والملائكة» بالنصب. وقرأ شعبة عن عاصم «ما تنزل» ببناء الفعل للمفعول «والملائكة» بالرفع. والباقون «تنزل الملائكة». {وَمَا كَانُواْ إِذًا} أي إذ نزلت عليهم الملائكة بالعذاب {مُّنظَرِينَ} أي مؤخرين ساعة أي ولو نزلنا الملائكة ما أخر عذابهم ونحن لا نريد عذاب الاستئصال بهذه الأمة فلهذا السبب ما أنزلنا الملائكة {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ} الذي أنكروا نزوله عليك ونسبوك بذلك إلى الجنون {وَإِنَّا لَهُ} أي الذكر {لَحَٰفِظُونَ} من الشياطين حتى لا يزيدوا فيه ولا ينقصوا منه ولا يغيروا حكمه. ويقال: وإنا لمحمد لحافظون من الكفار والشياطين {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا} رسلاً {مِن قَبْلِكَ} يا أكرم الرسل {فِى شِيَعِ ٱلأَوَّلِينَ} أي في أمم الأولين {وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أي عادة هؤلاء الجهّال مع الرسل ذلك الاستهزاء كما يفعله هؤلاء الكفرة بك وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم {كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ} أي مثل ذلك السلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاؤوا به من الكتاب نسلك الذكر في قلوب كفار مكة.

{لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} أي بالذكر. وهذا حال من ضمير نسلكه أو لا محل له من الإعراب تفسير للجملة السابقة. والمراد من هذا السلك هو أنه تعالى يسمعهم هذا القرآن ويخلق في قلوبهم حفظ هذا القرآن ويخلق فيها العلم بمعانيه ومع هذه الأحوال لا يؤمنون به عناداً منهم {وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلأَوَّلِينَ} أي وقد مضت سيرة الأولين بتكذيب الرسل ومضت سيرة الله فهم بإهلاكه إياهم بعد التكذيب، وهذه الجملة استئناف جيء بها تكملة للتسلية وتهديداً لكفار مكة {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم} أي كفار مكة الذين اقترحوا نزول الملائكة {بَاباً مِّنَ ٱلسَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ} أي في ذلك الباب {يَعْرُجُونَ} أي يصعدون ويرون ما فيها من العجائب عياناً {لَقَالُواْ} لفرط عنادهم: {إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا} أي غشيت بالسحر. وقرأ ابن كثير بتخفيف الكاف. والباقون بتشديدها فهو يوجب تكثيراً أو حيرت من السكر كما يعضده قراءة من قرأ سكرت أي حارت {بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ} أي قد سحر محمد عقولنا كما قالوه عند ظهور سائر المعجزات من انشقاق القمر ومن القرآن الذي لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَاءِ بُرُوجًا} أي محال تسير فيها الكواكب السيارة وهي المريخ بكسر الميم وهو كوكب في السماء الخامسة وله الحمل والعقرب والزهرة بضم ففتح وهي في السماء الثالثة، ولها الثور والميزان وعطارد بفتح العين وهي في الثانية، ولها الجوزاء والسنبلة والقمر، وهو في الأولى، وله السرطان والشمس وهي في الرابعة، ولها الأسد والمشتري وهو في السادسة، وله القوس والحوت وزحل وهو في السابعة، وله الجدي والدلو وجملة البروج اثنا عشر، ووجه دلالة البروج على وجود الصانع المختار هو أن طبائع هذه البروج مختلفة، فالفلك مركب من هذه الأجزاء المختلفة، وكلٌ مركب لا بد له من مركب يركب تلك الأجزاء بحسب الاختيار والحكمة فثبت أن كون السماء مركبة من البروج يدل على وجود الفاعل المختار وهو المطلوب {وَزَيَّنَّٰهَا} أي السماء بالشمس والقمر والنجوم {لِلنَّٰظِرِينَ} بأبصارهم وبصائرهم فيستدلون بها على قدره صانعها ووحدته {وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ} أي مرمي بالشهاب فلا يقدر أن يصعد إليها ويوسوس في أهلها ويقف على أحوالها {إِلاَّ مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ} أي إلا من اختلس المسموع سراً من غير دخول {فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ} أي لحقه شعلة نار ساطعة تنفصل من الكوكب {مُّبِينٌ} أي ظاهر أمره للمبصرين.

{وَٱلأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا} أي بسطناها على وجه الماء {وَأَلْقَيْنَا فِيهَا} أي على الأرض {رَوَٰسِيَ} أي جبالاً ثوابت لكيلا تميل بأهلها ولتكون دلالة للناس على طرق الأرض لأنها كالأعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال {وَأَنْبَتْنَا فِيهَا} أي الأرض {مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ} أي مستحسن مناسب أو موزون بوزن فالمعادن كلها موزونة وذلك مثل الذهب والفضة والحديد والرصاص وغير ذلك والنباتات ترجع عاقبتها إلى الوزن، لأن الحبوب توزن وكذلك الفواكه في الأكثر {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا} أي الأرض {مَعَٰيِشَ} أي ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرهما مما يتعلق به البقاء مدة حياتكم في الدنيا {وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَٰزِقِينَ} أي وجعلنا لكم من لستم برازقيه من العيال والخدم والعبيد والدواب والطيور وما أشبهها، فالناس يظنون في أكثر الأمر أنهم الذين يرزقونهم وذلك خطأ فإن الله هو الرزاق يرزق الكل {وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ} أي إن جميع الممكنات مقدورة له تعالى يخرجها من العدم إلى الوجود كيف شاء شبهت مقدوراته تعالى الفائتة للحصر في كونها مستورة عن علوم العالمين وكونها مهيأة لإيجاده بحيث متى تعلقت الإرادة بوجودها وجدت من غير تأخر بنفائس الأموال المخزونة في الخزائن السلطانية {وَمَا نُنَزِّلُهُ} أي ما نوجد شيئاً {إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} أي إلا ملتبساً بمقدار معين تقتضيه الحكمة فقوله تعالى: {إِنَّ مِنْ * شَىْء إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ} إشارة إلى كون مقدوراته غير متناهية وقوله تعالى: {وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} إشارة إلى كون مقدوراته غير متناهية وقوله تعالى: {وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} إشارة إلى أن كل ما يدخل في الوجود منها فهو متناه ومتى كان الخارج إلى الوجود منها متناهياً كان مختصاً بوقت مقدر وبحيز معين وبصفات معينة بدلاً عن أضدادها، فتخصيص كل شيء بما اختص به لا بد له من حكمة تقتضي ذلك. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: إن في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البحر والبر وهو تأويل قوله تعالى: {وَإِن مّن شَىْء إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ}.

{وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} أي حوامل لأنها تحمل الماء وتمجه في السحاب {فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ} أي السحاب {مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} أي جعلناه لكم سقياً وفي هذا دلالة على جعل الماء معداً لهم ينتفعون به متى شاؤوا {وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بِخَٰزِنِينَ} أي نحن القادرون على إيجاده وخزنه في السحاب وإنزاله في الأرض وما أنتم على ذلك بقادرين. وقيل: ما أنتم بخازنين له بعدما أنزلناه في الغدران

والآبار والعيون بل نحن نخزنه فيها لنجعلها سقياً لكم أي معداً لسقي أنفسكم ومواشيكم وأراضيكم مع أن طبيعة الماء تقتضي الغور {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ} أي لا قدرة على الإحياء ولا على الإماتة إلا لنا {وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ} أي الباقون بعد فناء الخلق المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك المجازي {وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ} أي من تقدم منكم ولادة وموتاً {وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَأخِرِينَ} أي من تأخر ولادة وموتاً.

وقال ابن عباس: في رواية عطاء معنى المستقدمين: أهل طاعة الله تعالى. ومعنى المستأخرين: المتخلفون عن طاعة الله تعالى {وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ} للجزاء {إِنَّهُ حَكِيمٌ} أي متقن في أفعاله فيأتي بالأفعال على ما ينبغي وعالم بحقائق الأشياء على ما هي عليه {عَلِيمٌ} أي وسع علمه كل شيء {وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَٰنَ} أي آدم {مِن صَلْصَٰلٍ} أي من طين يابس غير مطبوخ يصوت عند نقره {مِّنْ حَمَإٍ} أي كائن من طين متغير أسود بطول مجاورة الماء {مَّسْنُونٍ} أي مصور بصورة الآدمي. قال المفسرون: خلق الله تعالى آدم عليه السلام من طين فصوره وتركه في الشمس أربعين سنة فصار صلصالاً كالخزف، ولا يدري أحد ما يراد به ولم يروا شيئاً من الصور يشبهه إلى أن نفخ فيه الروح {وَ ٱلْجَآنَّ} وهو أبو الجن والأصح أن الشياطين قسم من الجن فكل من كان منهم مؤمناً فإنه لا يسمى بالشيطان وكل من كان منهم كافراً يسمى بهذا الاسم {خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ} أي من قبل خلق الإنسان {مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ} أي من نار الحر الشديد النافذ في المسام أو من نار الريح الحارة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌ بَشَرًا} أي جسماً كثيفاً يلاقي بخلاف الجن والملائكة فإنهم لا يلاقون للطف أجسامهم {مِّن صَلْصَٰلٍ} أي من طين يتصلصل {مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} أي من طين منتن رطب {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ} أي أتممت خلقه باليدين والرجلين والعينين وغير ذلك {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى} أي جعلت الروح فيه وليس ثَمَّ نفخ ولا منفوخ وإنما هو تمثيل لإفاضة ما يحيا آدم به من الروح التي هي من أمره تعالى {فَقَعُواْ} أي خروا {لَهُ} أي لذلك البشر {سَٰجِدِينَ} بوضع الجبهة على الأرض لا بالانحناء تعظيماً له، فالسجود كان لآدم في الحقيقة. أو المعنى اسجدوا لله تعالى بوضع الجبهة على الأرض، وآدم عليه السلام بمنزلة القبلة لذلك السجود حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته تعالى وحكمته {فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} أي فخلقه فسواء فجعل فيه الحياة فسجد الملائكة. فمعنى «كلهم» أي لم يشذ منهم أحد، ومعنى «أجمعون» أي لم يتأخر في ذلك أحد منهم عن

أحد، أي فالكل سجدوا دفعة واحدة {إِلاَّ إِبْلِيسَ} رئيسهم {أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّجِدِينَقَالَ} أي الله تعالى {يٰإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ ٱلسَّجِدِينَ} أي أيّ سبب لـك فـي أن لا تكـون مـع السـاجدين لآدم {قَالَ} أي إبليس: {لَمْ أَكُـن لأَسْـجُدَ} أي لا يصـح منـي أن أسـجد {لِبَشَرٍ} أي جسم كثيف لأنه مخلوق من أشـرف العناصـر وأعلاهـا وأنا روحاني لطيـف {خَلَقْتَـهُ} أي البشـر {مِـن صَلْصَـٰلٍ} ناشـىء {مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ} الله تعالى: {فَ ٱخْرُجْ مِنْهَا} أي مـن زمـرة الملائكة المعززين ويقال: مـن رحمـتي والفـاء فـي جـواب شـرط مقدر أي فحيث عصـيت وتكـبرت فـاخرج منهـا {فَإِنَّـكَ رَجِيـمٌ} أي مطرود عن الرحمـة {وَإِنَّ عَلَيْـكَ ٱللَّعْنَـةَ} أي الإبعـاد عـن الرحمـة {إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ} أي الجزاء أي إنك مدعو باللعنـة فـي السـموات والأرض إلى يوم الحساب من غير أن يعـذب فـإذا جـاء ذلـك اليـوم عذب عذاباً ينسى اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب أن شـدة العـذاب تـذهل عنـه {قَـالَ} إبليـس: {رَبِّ فَـأَنظِرْنِى} أي أخرني ولا تمتني {إِلَـىٰ يَـوْمِ يُبْعَثُـونَ} أي آدم وذريتـه للجـزاء بعـد فنائهم وأراد الملعون بهذا السـؤال أن لا يـذوق المـوت لاسـتحالته بعد يوم البعث وأن يجد فسـحة فـي إغـوائهم {قَـالَ} اللـه تعـالى: {فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ} أي المؤجلين {إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْـوَقْتِ ٱلْمَعْلُـومِ} وهو وقت النفخة الأولى التي علم أنه يموت كل الخلائق فيه.

{قَالَ} إبليس: {رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلأَرْضِ} أي أقسم بإغوائك إياي لأزينن لذرية آدم المعاصي في الدنيا الـتي هـي دار الغرور {وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَـادَكَ مِنْهُـمُ ٱلْمُخْلَصِـينَ}. قـرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بكسر اللام في كل القرآن أي الذين أخلصوا دينهم عن كل شائب يناقض التوحيـد. وقـرأ البـاقون بفتـح اللام أي الذين أخلصهم الله تعالى بالتوفيق والعصمة وعصمهم من كيد إبليس قال تعالى: {قَالَ هَـذَا صِـرٰطٌ عَلَـىَّ مُسْـتَقِيمٌ} أي هـذا الإخلاص طريق يؤدي إلى كرامتي وثوابي من غيـر اعوجـاج. وقـرأ يعقوب «علي» بالرفع والتنوين على أنه صـفة «لصـراط» أي هـذا الإخلاص طريق رفيع لا عوج فيه {إِنَّ عِبَادِى} سواء كانوا مخلصين أو لم يكونوا مخلصين {لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِـمْ سُـلْطَٰنٌ} أي قـدرة أصـلاً على الإغواء {إِلاَّ مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَـاوِينَ} ولمـا أوهـم إبليـس فـي كلامه أن له على بعض عباد الله تسلطاً بالإغواء بين الله كذبه فيـه وذكر أن إغواءه للغاوين ليس بطريق تصرفه بـالإغواء بـل بطريـق اتبـاعهم لـه بسـوء اختيـارهم {وَإِنَّ جَهَنَّـمَ لَمَوْعِـدُهُمْ} أي لمصـير المتبعين {أَجْمَعِينَلَهَا} أي لجهنم {سَبْعَةُ أَبْوَابٍ} أي سـبع طبقـات ينزلونها بحسب مراتبهـم فـي المتابعـة وهـي جهنـم ثـم لظـى، ثـم

الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية {لِكُـلِّ بَـابٍ} أي دركة {مِّنْهُمْ} أي الأتباع {جُزْءٌ} أي حزب معين {مَّقْسُومٌ} أي مفرز من غيره ففي الدركة الأولى: أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم، ثـم يخرجـون منهـا. وفـي الثانيـة: النصـارى. وفـي الثالثـة: اليهـود. وفـي الرابعـة: الصـابئون. وفـي الخامسـة: المجوس. وفي السادسة: أهل الشرك. وفي السابعة: المنافقون. والحاصل أن الله تعالى يجزىء أتباع إبليـس سـبعة أجـزاء فيـدخل كل جزء منهم دركة من النار والسبب في التجزئة أن مراتب الكفر مختلفة بالغلظ والخفة فصارت مراتب العذاب مختلفة بذلك.

{إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ} من الكفر {فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ} أي مستقرون فيهما لكل منهم عـدة منهمـا { ٱدْخُلُوهَـا بِسَـلَٰمٍ} أي ادخلـوا الجنـة سالمين من كل آفة {ءَامِنِينَ} من كل خوف، أي لما ملكـوا جنـات كثيرة فكلما أرادوا أن ينقلوا من جنة إلى أخرى قيل لهم: ادخلوهـا بسلام آمنين. وقرىء «ادخلوها» أمـراً مـن اللـه تعـالى للملائكـة بإدخالهم في الجنة. وقرأ الحسن «ادخلوها» مبيناً للمفعـول علـى صيغة الماضي المزيد فيه. {وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّـنْ غِـلٍّ} أي عداوة كانت بينهم في الدنيا {إِخْوَانًا} حال من ضـمير صـدورهم أو من فاعل ادخلوها {عَلَىٰ سُرُرٍ} من ذهـب مكللـة بالزبرجـد والـدر والياقوت تدور بهم الأسرة حيثما داروا {مُّتَقَٰبِلِينَ} فـي الزيـارة أي إنهم إذا اجتمعوا، ثم أرادوا الانصراف يدور سرير كل واحد منهم به بحيث يصير راكبه مقابلاً بوجهه لمن كان عنـده وقفـاه إلـى الجهـة التي يسير لها السرير وهذا أبلغ فـي الإنـس والإكـرام {لاَ يَمَسُّـهُمْ فِيهَا نَصَبٌ} أي تعب لحصول كل ما يريدونه من غير مزاولـة عمـل أصلاً {وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِيـنَ} لأن تمـام النعمـة بـالخلود {نَبِّىء عِبَادِى} أي أخبر يا أشرف الرسل كل مـن كـان معترفـاً بعبوديـتي {أَنِّى أَنَا ٱلْغَفُـورُ} للعصـاة مـن المـؤمنين {ٱلرَّحِيـمُ} بهـم {وَأَنَّ عَذَابِى} للعصاة إن عذبت {هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلأَلِيمُ}.

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ بنفر من أصحابه وهم يضحكون فقال: «أتضحكون والنار بين أيديكم» فنزل قوله تعـالى: {نَبِّىء عِبَادِى أَنِّى أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيـمُ} {وَنَبِّئْهُـمْ} أي خـبر يـا سـيد المرسلين عبادي {عَن ضَـيْفِ إِبْرَاهِيـمَ} وهـم ملائكـة علـى صـور غلمان حسـان منهـم جبريـل {إِذْ دَخَلُـواْ عَلَيْـهِ فَقَـالُواْ سَـلاَمًا} أي فسلموا سلاماً، أي قالوه تحية لإبراهيم {قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ} أي خائفون. قال إبراهيم ذلك حين امتنعوا من أكل ما قربه إليهـم مـن العجل الحنيذ، لأن العادة أن الضيف إذا لم يأكل مما قدم لـه يكـون خائناً {قَـالُواْ لاَ تَوْجَـلْ} أي لا تخـف يـا إبراهيـم منـا {إِنَّـا نُبَشِّـرُكَ

بِغُلٰمٍ} أي ولد هو إسحاق {عَلِيمٍ} في صغره حليم في كبره {قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى} بذلك {عَلَىٰ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ} أي بعدما أصابني الكبر {فَبِمَ تُبَشِّرُونَ} أي فبأي أعجوبة تبشروننى؟ «فما» استفهام بمعنى التعجب. أراد إبراهيم بهذا السؤال أن يعرف أنه تعالى يعطيه الولد مع إبقائه على صفة الشيخوخة، أو بعد قلبه شاباً؟ فبينوا أن الله تعالى أعطاه الولد مع إبقائه على صفة الشيخوخة. قرأ نافع «تبشرون» بكسر النون خفيفة في كل القرآن. وقرأ ابن كثير بكسر النون وتشديدها. والباقون بفتح النون خفيفة {قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ} أي بطريقة هي حق وهو أمر الله تعالى {فَلاَ تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ} أي من الآيسين من الولد فإن الله قادر على أن يخلق بشراً بغير أبوين فكيف من شيخ فانٍ وعجوز عاقر {قَالَ} إبراهيم: {وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ ٱلضَّآلُّونَ} أي لا يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح في ربهم فلا يعرفون سعة رحمة الله تعالى وكمال علمه وقدرته. ومراد سيدنا إبراهيم بهذا القول نفي القنوط عن نفسه على أبلغ وجه أي ليس بي قنوط من رحمته تعالى، وإنما الذي أقول لبيان منافاة حالي لفيضان تلك النعمة الجليلة عليَّ. وقرأ أبو عمرو والكسائي «يقنط» بكسر النون، وقرىء شاذاً بضم النون.

{قَالَ} إبراهيم لجبريل وأعوانه: {فَمَا خَطْبُكُمْ} أي شأنكم الخطير سوى البشارة {أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ} لإهلاكهم {إِلاَ ءَالَ لُوطٍ} ابنتيه زاعورا وريثا وامرأته الصالحة {إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ} أي لوطاً وآله {أَجْمَعِينَ} أي مما يصيب القوم {إِلاَّ ٱمْرَأَتَهُ} واعلة المنافقة {قَدَّرْنَآ} أي قضينا عليها {إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ} أي الباقين مع الكفرة لتهلك معهم، وقرأ أبو بكر عن عاصم «قدرنا» بتخفيف الدال هٰهنا وفي النمل. وقرأ حمزة والكسائي «لمنجوهم» بسكون النون فخرجوا من عند إبراهيم وسافروا من قريته إلى قرية لوط وكان بينهما أربعة فراسخ {فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ} هم الملائكة الذين ضافوا إبراهيم {قَالَ} لوط لهم: {إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ} أي تنكركم نفسي فأخاف أن تصيبوني بشر ولا أعرف غرضكم، لأي غرض دخلتم عليَّ {قَالُواْ} أي الملائكة: {بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ} أي ما جئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بالعذاب الذي هددت قومك به فيشكون في مجيئه لهم ويكذبونك وهو ما يشفيك من عدوك وما فيه سرورك {وَآتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ} أي بالأخبار بمجيء العذاب {وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ} في مقالتنا إن العذاب نازل عليهم {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ} أي فسر ببنتيك وامرأتك الصالحة في جزء من الليل عند

السحر {وَ ٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ} أي امش خلفهم جهة صعر لأجل أن تطمئن عليهم وتعرف أنهم ناجون {وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ} إلى ورائه إذا سمع الصيحة لئلا ترتاعوا من عظيم ما نزل بهم من البلاء {وَ ٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ} أي سيروا إلى المكان الذي أمركم الله بالذهاب إليه وهو صعر، {وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ ٱلأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ} أي وأخبرنا لوطاً عن ذلك الأمر إن آخر هؤلاء المجرمين مستأصل حال دخولهم في الصبح أي يتم استئصالهم حال ظهور الصبح حتى لا يبقى منهم أحد. {وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ} أي مدينة سذوم إلى دار لوط: {يَسْتَبْشِرُونَ} أي يظهرون السرور بأضياف لوط وقالوا: نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح وجهاً ولا أحسن شكلاً منهم فذهبوا إلى دار لوط طلباً منه لأولئك المرد.

{قَالَ} لهم لوط: {إِنَّ هَٰؤُلآءِ ضَيْفِى فَلاَ تَفْضَحُونِ} أي فلا تظهروا عاري عندهم فإن الضيف يجب إكرامه فإذا قصدتموهم بالسوء كان ذلك إهانة بي {وَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} في فعل الفاحشة {وَلاَ تُخْزُونِ} أي ولا تخجلوني {قَالُواْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ} أي ألسنا قد نهيناك عن أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة وكان لوط ينهاهم عنها بقدر وسعه {قَالَ هَٰؤُلآءِ بَنَاتِى} فتزوجوهن {إِن كُنْتُمْ فَٰعِلِينَ} قضاء الوطر {لَعَمْرُكَ} قسمي. وهذا قسم من الملائكة بحياة لوط عليه السلام {إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ} أي في شدة غلمتهم التي أزالت عقولهم {يَعْمَهُونَ} أي يتحيرون فكيف يقبلون قولك ويلتفتون إلى نصيحتك {فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ} أي صيحة عظيمة مهلكة {مُشْرِقِينَ} أي داخلين في وقت شروق الشمس {فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا} أي المدينة {سَافِلَهَا} وكانت قراهم أربعة فيها أربعمائة ألف مقاتل {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ} أي على أهل المدينة قبل تمام الانقلاب أو على من كان منهم خارجاً عن المدينة بأن كان غائباً في سفر أو غيره {حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} أي وحل مطبوخ بالنار عليه كتاب {إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي فيما ذكر من قصة إبراهيم وقصة لوط {لآيَٰتٍ} أي لعبرات {لِّلْمُتَوَسِّمِينَ} أي للمتفكرين {وَإِنَّهَا} أي مدينة قوم لوط {لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ} أي في طريق ثابت لم يخف والذين يمرون من الحجاز إلى الشام يشاهدونها {إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي في كون المدينة مشاهدة للناس في ذهابهم وإيابهم {لآيَةً} أي لعبرة عظيمة {لِّلْمُؤْمِنِينَ} أي لكل من آمن بالله وصدق الأنبياء فإنهم عرفوا أن ما حاق بهم من العذاب لمخالفتهم لرسل الله تعالى أما الذين لا يؤمنون فيحملونه على حوادث العالم {وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلأَيْكَةِ}

أي وإن الشأن كان أصحاب بقعة الأشجار، وكانوا يسكنونها وكان أكثر شجرهم الدوم {لَظَٰلِمِينَ} بتكذيبهم شعيباً عليه السلام {فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ}. روي أن الله تعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى أخذ بأنفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله لهم سحابة كالظلة، فالتجأوا إليها واجتمعوا تحتها للتظلل بها، فبعث الله عليهم منها ناراً، فأحرقتهم جميعاً. {وَإِنَّهُمَا} أي قريات لوط وقريات شعيب {لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ} أي لفي طريق واضح يمر أهل مكة عليهما {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ} أي صالحاً وجملة المرسلين فالقوم براهمة منكرون لكل الرسل، والحجر واد بين المدينة الشريفة والشام وآثاره باقية يمر عليها ركب الشام في ذهابه إلى الحجاز؛ وكان ثمود يسكنونه.

{وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا} أي أعطيناهم الناقة، وكان فيها آيات كثيرة كخروجها من الصخرة، وعظم جثتها وقرب ولادتها عند خروجها من الصخرة وكثرة لبنها وشربها {فَكَانُواْ عَنْهَا} أي تلك الآيات {مُعْرِضِينَ} فلا يستدلون بها على صدق صالح عليه السلام حتى قتلوا الناقة {وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ} من الانهدام ونقب اللصوص، وتخريب الأعداء لوثاقتها {فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ} أي صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم عند الصباح {فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} أي فلم يدفع عنهم ما كانوا يعملون من تحت تلك الجبال بنقرها بالمعول وجمع الأموال ما نزل بهم من البلاء {وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِـ ٱلْحَقِّ} أي إلا بسبب العدل فكيف يليق بحكمته إهمال أمرك يا أكرم الرسل {وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لآتِيَةٌ} فإن الله لينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك على حسناتك ويجازيهم على سيئاتهم {فَ ٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ} أي أعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم إعراضاً جميلاً بحلم.

والمقصود من هذا الكلام أن يظهر الرسول الخُلق الحسن والعفو فلا يكون منسوخاً {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ} أي إنه تعالى خلق الخلق مع اختلاف طبائعهم وتفاوت أحوالهم وعلم كونهم كذلك لمحض إرادته {وَلَقَدْ ءاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي} أي سبع آيات هي المثاني وهي الفاتحة وهذا قول عمر وعلي وابن مسعود وأبي هريرة، والحسن وأبي العالية، ومجاهد، والضحاك، وسعيد بن جبير، وقتادة.

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال: «هي السبع المثاني». وقيل: سميت الفاتحة مثاني لأنها قسمان ثناء

ودعاء، وأيضاً النصف الأول منها حق الربوبية وهو الثناء والنصف الثاني حق العبودية وهو الدعاء {وَ لْقُرْءَانَ لْعَظِيمَ} وهذا من عطف الكل على البعض فبعض الشيء مغاير لمجموعه فيكفي هذا القدر من المغايرة في حسن العطف. ونقل عن ابن عباس وطاوس أن السبع المثاني هو القرآن كله. وعلى هذا فهو عطف أحد الوصفين على الآخر مع وحدة ذات الموصوف وإنما حسن العطف لاختلاف اللفظين فإن القرآن سبعة أسباع كل سبع صحيفة وكله مثان أمر ونهي ووعد ووعيد، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، وحقيقة ومجاز، ومحكم ومتشابه، وخبر ما كان وما يكون، ومدحة لقوم ومذمة لقوم. وسبب نزول هذه الآية أن سبع قوافل أقبلت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد فيها أنواع من البز والطيب والجواهر، وسائر الأمتعة فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها ولأنفقناها في سبيل الله فقال الله تعالى لهم لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير لكم من هذه القوافل السبع ويدل على صحة هذا قوله تعالى: {لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ} أي لا تنظرن بالرغبة إلى ما أعطيناه رجالاً من الكفرة من متاع الدنيا وزخارفها فإن ما في الدنيا بالنسبة إلى ما أعطيت مستحقر {وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} أي لا تحزن لأجل عدم إيمانهم {وَ خْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} أي تواضع لهم ولين جانبك لهم {وَقُلْ إِنِّيۤ أَنَا لنَّذِيرُ لْمُبِينُ كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى لْمُقْتَسِمِينَ} أي إني منذر آت بالبينات فأنذرتكم مثل ما نزل بالذين اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عن الإيمان ويقولون لمن سلكها: لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدعي النبوة فإنه مجنون، وربما قالوا: ساحر، وربما قالوا: شاعر، وربما قالوا: كاهن. وسمُّوا المقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق فأماتهم الله شر ميتة. { لَّذِينَ جَعَلُواْ لْقُرْءَانَ عِضِينَ} أي الذين جزأوا القرآن أجزاء فقالوا: سحر وشعر وكهانة ومفترى وأساطير الأولين.

{فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} يوم القيامة {عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} في الدنيا من قول وفعل وترك {فَ صْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} أي أظهر ما تؤمر به وافرق بين الحق والباطل {وَأَعْرِضْ عَنِ لْمُشْرِكِينَ} أي لا تبال بهم ولا تلتفت إلى لومهم إياك على إظهار الدعوة وهذا ليس بمنسوخ، لأن معنى هذا الإعراض ترك المبالاة بهم {إِنَّا كَفَيْنَٰكَ لْمُسْتَهْزِءِينَ} أي الذين يبالغون في الاستهزاء بك، وفي إيذائك { لَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ للَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ} ماذا يفعل بهم فأهلكهم الله في يوم وليلة وكانوا خمسة من أشراف قريش الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحرث بن قيس،

والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث فأما الوليد المخزومي فمر بنبال، فأصاب النبل عرقاً في عقبه فقطعه فمات، وأما العاص السهمي فدخلت في أخمصه شوكة فقال: لدغت لدغت، وانتفخت رجله حتى صارت كالرحا، فمات. وأما الحرث السهمي: فإنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فشرب عليه الماء حتى انشق بطنه فمات. وأما الأسود بن المطلب: فرماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعته عينه، فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك. وأما الأسود بن عبد يغوث: فإنه خرج في يوم شديد الحر فأصابه السموم، فاسود حتى عاد حبشياً فرجع إلى بيته فلم يفتحوا عليه الباب فنطع رأسه ببابه حتى مات وكلهم كانوا يقولون: قتلنا رب محمد صلى الله عليه وسلم. {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ} بحسب الطبيعة البشرية وإن كان جميع أموره صلى الله عليه وسلم مفوضاً لربه {بِمَا يَقُولُونَ} أي بسبب ما يقولون من كلمات الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء به وبك {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} أي فافزع إلى الله تعالى فيما نابك من الغم بالتسبيح ملتبساً بحمده تعالى {وَكُنْ مِّنَ ٱلسَّجِدِينَ} أي من المصلين وكان صلى الله عليه وسلم إذا حزَّ به أمر فزع إلى الصلاة {وَ ٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ} أي الموت فإنه متيقن اللحوق بكل حي مخلوق أي واعبد ربك في زمان حياتك ولا تخل لحظة من لحظات الحياة عن هذه العبادة.

سورة النحل

وتسمى سورة النعم. مكية، إلا ثلاث آيات في آخرها، مائة وثمان وعشرون آية، وألف وثمانمائة وإحدى وأربعون كلمة، وستة آلاف وسبعمائة وأربعة وسبعة أحرف.

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ} أي العذاب الموعود للكفرة. والحاصل أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ولم يروا شيئاً نسبوه إلى الكذب فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله تعالى: أتى أمر الله أي قد حصل حكم الله بنزول العذاب من الأزل إلى الأبد وإنما لم يحصل المحكوم به لأنه تعالى خصص حصوله بوقت معين {فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ} أي لا تطلبوا حصوله قبل حضور ذلك الوقت ولما قالت الكفار: إنا سلمنا لك يا محمد صحة ما تقوله من أنه تعالى حكم بإنزال العذاب علينا إما في الدنيا وإما في الآخرة إلا أنا نعبد

هذه الأصنام فإنها شفعاؤنا عند الله فهي تشفع لنا عنده فنتخلص من هذا العذاب المحكوم به بسبب شفاعة هذه الأصنام فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله تعالى: {سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} فنزه الله تعالى نفسه عن شركة الشركاء وأن يكون لأحد أن يشفع عنده إلا بإذنه ولما قال الكفار: إنه تعالى قضى على بعض عباده بالسراء وعلى آخرين بالضراء، ولكن كيف يمكنك يا محمد أن تعرف هذه الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالىٰ وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله وأحكامه في ملكه وملكوته؟ فأجاب الله تعالى عن ذلك بقوله تعالى: {يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰئِكَةَ} أي جبريل ومن معه من الملائكة {بِٱلرُّوحِ} أي بكلام الله تعالى {مِنْ أَمْرِهِ} أي إن الروح هي أمره تعالى {عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ} وهم الأنبياء {أَنْ أَنْذِرُوٓاْ} أي أعلموا الناس {أَنَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَ أَنَاْ فَٱتَّقُونِ} بالإتيان بعبادتي.

وتقرير هذا الكلام أنه تعالى ينزل الملائكة على من يشاء من عبيده، ويأمر الله ذلك العبد الذي نزلت عليه الملائكة بأن يبلغ إلى سائر الخلق أن إله العالم واحد كلفهم بمعرفة التوحيد وبالعبادة له، وبين أنهم إن فعلوا ذلك فازوا بخيري الدنيا والآخرة، وإن تمردوا وقعوا في شر الدنيا والآخرة فبهذا الطريق صار ذلك العبد مخصوصاً بهذه المعارف من دون سائر الخلق فقوله تعالى: {لا إِلَٰهَ إِلا أَنَاْ} إشارة إلى الأحكام الأصولية وقوله تعالى: {فَٱتَّقُونِ} إشارة إلى الأحكام الفروعية {خَلَقَ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضَ بِٱلْحَقِّ} أي أوجدهما على صفات خصصها بحكمته ولما احتج تعالى بخلق السمٰوات والأرض على حدوثهما قال بعده: {تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} فالقائلون بقدم السمٰوات والأرض كأنهم أثبتوا لله شريكاً في القدم، فنزه تعالى نفسه عن ذلك وبيَّن أنه لا قديم إلا هو. فالمقصود من قوله أولاً سبحانه وتعالى عما يشركون إبطال قول من يقول: إن الأصنام تشفع للكفار في دفع عقاب الله عنهم. والمقصود ههنا إبطال قول من يقول أجسام السموات والأرض قديمة فنزه الله تعالى نفسه عن أن يشاركه غيره في القدم {خَلَقَ ٱلإِنْسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ} منتنة {فَإِذَا هُوَ} بعد قوة عقله وعظم فهمه {خَصِيمٌ} لربه {مُّبِينٌ} أي ظاهر الخصومة منكر لخالقه قائل من يحيي العظام وهي رميم وهذا إشارة إلى الاستدلال بأحوال نفس الإنسان على وجود الصانع الحكيم فإن الانتقال من الحالة الخسيسة إلى الحالة العالية لا يحصل إلا بتدبير مدبر حكيم عليم {وَٱلأَنْعَٰمَ} أي الإبل والبقر والغنم {خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ} أي ما يتدفأ به من اللباس المتخذة من الأصواف والأوبار والأشعار

{وَمَنٰفِعُ} هي درها وركوبها والحراثة بها وغير ذلك {وَمِنْهَا} أي من لحومها {تَـأْكُلُونَوَلَكُمْ فِيهَـا جَمَـالٌ} أي منظـر حسـن عنـد النـاس {حِيـنَ تُرِيحُـونَ} أي تردونها مـن مراعيها إلـى مراحها بالعشـي {وَحِيــنَ تَسْــرَحُونَ} أي تخرجونهـا مــن حظائرهـا إلـى المرعـى بالغداة.

{وَتَحْمِلُ} أي الإبل {أَثْقَالَكُمْ} أي أمتعتكم {إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بٰلِغِيهِ} أي واصلين إليه على غير الإبل {إِلاَّ بِشِـقِّ ٱلأَنفُـسِ} أي إلا بتعب النفس أو إلا بذهاب نصف قوة البدن، والشق بكسـر الشـين وفتحها معناه المشقة والنصف {إِنَّ رَبَّكُمْ لَـرَؤُوفٌ رَّحِيـمٌ} ولـذلك أصبغ عليكم هذه النعم الجليلة ويسَّر لكم الأمور الشـاقة {وَ ٱلْخَيْـلَ وَ ٱلْبِغَالَ وَ ٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً} أي وخلق هـذه الأشـياء للركـوب وللمنظر الحسن، واحتج بهذه الآية من يحرم لحـوم الخيـل وقـالوا: لأن الله تعالى خصَّ هذه بالركوب فعلمنـا أنهـا مخلوقـة للركـوب لا للأكل وهو قول ابن عباس وإليه ذهب الحكـم ومالـك وأبـو حنيفـة، وذهب جماعة من أهل العلـم إلـى إباحـة لحـوم الخيـل، وهـو قـول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير وإليه ذهب الشافعي وأحمد وإسحاق، واحتجوا على إباحة لحوم الخيل بما روي عن أسماء بنت أبي بكر الصدِّيق قالت: نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسـلم فرسـاً ونحــن بالمدينــة أخرجــه البخــاري ومسـلم. روى الشيخان عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله صـلى اللـه عليـه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل. {وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} أي ويخلق في الدنيا غير ما عدد من أصـناف النعـم. روي عن ابن عباس أنه قال: إن عن يميـن العـرش نهـراً مـن نـور مثل السمٰوات السبع والأرضين السبع والبحار السـبعة يـدخل فيـه جبريل عليه السـلام كـل سحر، فيغتسـل، فيـزداد نـوراً إلـى نـور، وجمالاً إلى جمال، وعظماً إلى عظم، ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقع من ريشة كذا وكذا ألف ملك فيـدخل منهـم كـل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور، وسبعون ألف ملك الكعبة، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة {وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ} أي وعلى الله بيان استقامة الطريق وهو الإسـلام {وَمِنْهَـا} أي مـن السـبيل {جَآئِرٌ} أي مائل عن الحق وهو أنـواع الكفـر والضـلال {وَلَـوْ شَـآءَ لَهَـدَاكُمْ أَجْمَعِيـنَ} إلـى اسـتقامة الطريـق {هُـوَ ٱلَّـذِيۤ أَنْـزَلَ مِـنَ ٱلسَّمَاءِ مَآءً لَّكُم} ولكل حي {مَّنْهُ} أي الماء {شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ} أي مــن المــاء مــا ينبــت علــى الأرض {فِيــهِ} أي فــي الشــجر {تُسِيمُونَ} ترعون مواشيكم.

{يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ} أي بالماء {ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلأَعْنَٰبَ} والإنسان خلق محتاجاً إلى الغذاء وهو إما أن يكون من الحيوان أو من النبات والغذاء الحيواني إنما يحصل من إسامة الحيوانات، وأما الغذاء النباتي فقسمان: حبوب، وفواكه. فالحبوب: هي ما به قوام بدن الإنسان. وأشرف الفواكه: الزيتون والنخيل والأعناب، أما الزيتون فلأنه فاكهة من وجه وإدام من وجه آخر لكثرة ما فيه من الدهن، ومنافع الأدهان كثيرة في الأكل والطلي واشتعال السرج، وأما امتياز النخيل والأعناب من سائر الفواكه فظاهر. {وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرٰتِ} مما لا يمكن على الناس تفصيل أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها {إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي في إنزال الماء وإنبات ما ذكر {لآيَةً} دالة على تفرده تعالى بالألوهية {لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومر عليها مقدار من الزمان مع رطوبة الأرض فإنها تنتفخ وينشق أعلاها فيصعد منه شجرة إلى الهواء وأسفلها تغوص منه عروق في الأرض، ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج منه الأوراق والأزهار والأكمام والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطباع والطعوم والألوان والروائح والأشكال والمنافع ومن تفكر في ذلك علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن أن يشبهه أحد في شيء من صفات الكمال {وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ وَ ٱلنُّجُومُ مُسَخَّرٰتٌ}.

قرأ ابن عامر «والشمس والقمر والنجوم» بالرفع على الابتداء و «مسخرات» خبرها. وقرأ حفص عن عاصم و «النجوم» بالرفع. والباقون بالنصب في الجميع و «مسخرات» حال منه، أي أنه تعالى سخر للناس هذه الأشياء وجعلها موافقة لمصالحهم حال كونها مسخرات لله تعالى {بِأَمْرِهِ} أي بإرادته كيف شاء {إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي تسخير الليل وما بعده {لآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} أي يعلمون أن تسخيرها من الله تعالى {وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلأَرْضِ} أي وسخر لكم ما خلق لكم في الأرض من حيوان ونبات {مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي اختلاف ما في الأرض {لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} أي يتعظون فإن اختلاف طبائع ما في الأرض وأشكاله مع اتحاد موادّه إنما هو بصنع حكيم عليم قادر مختار منزه عن كونه جسمانياً وذلك هو الله تعالى {وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ} ومعنى تسخير الله تعالى إياها للخلق جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها إما بالركوب أو بالغوص {لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا} أي سمكاً {طَرِيًّا} والتعبير عن السمك باللحم مع كونه حيواناً لانحصار الانتفاع به في الأكل ووصفه بالطراوة للإشعار بلطافته والتنبيه على طلب المسارعة إلى أكله لسرعة فساده {وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً} أي لؤلؤاً

ومرجاناً {تَلْبَسُونَهَا} أي تلبسها نساؤكم لأجلكم فإن زينة النساء بالحلي إنما هو لأجل الرجال فهي حلية لكم بهذا الاعتبار {وَتَرَى ٱلْفُلْكَ} أي تبصر السفن {مَوَاخِرَ فِيهِ} أي جواري في البحر مقبلة ومدبرة، ومعترضة بريح واحدة تشقه بحيزومها {وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ} أي لتركبوها للوصول إلى البلدان الشاسعة فتطلبوا الرزق بالتجارة وغيرها من فضل الله تعالى {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي تعرفون حقوق نعمه الجليلة فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد {وَأَلْقَىٰ فِى ٱلأَرْضِ رَوَاسِىَ} أي جعل فيها جبالاً ثوابت {أَن تَمِيدَ بِكُمْ} أي كراهة أن تميل بكم الأرض وتضطرب {وَأَنْهَٰراً} أي جعل في الأرض أنهاراً جارية لمنافعكم {وَسُبُلاً} أي جعل فيها طرقاً {لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} أي لكي تهتدوا بها في أسفاركم إلى مقاصدكم {وَعَلاٰمَٰتٍ} أي جعل في الأرض أمارات الطرق التي يستدل بها المارون: وهي الجبال والرياح والتراب فإن جماعة يشمون التراب ويتعرفون بذلك الشم الطرق {وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} بالليل في البراري والبحار. وقال السدي: هو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي.

{أَفَمَن يَخْلُقُ} هذه الأشياء وهو الله تعالى {كَمَن لاَّ يَخْلُقُ} شيئاً أصلاً وهو الأصنام {أَفَلا تَذَكَّرُونَ} أي ألا تلاحظون فلا تتذكرون فإن هذا القدر لا يحتاج إلى تفكر ولا إلى شيء سوى التذكر فيكفي فيه أن تتنبهوا على ما في عقولكم من أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادة من لا يستحق العبادة ويترك عبادة من يستحقها {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لاَ تُحْصُوهَآ} أي إنكم لا تعرفونها على سبيل التمام وإذا لم تعرفوها امتنع منكم القيام بشكرها على سبيل التمام ومما يدل قطعاً على أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة أقسام نعم الله تعالى أن كل جزء من أجزاء البدن الإنساني لو ظهر فيه أدنى خلل لتنغص العيش على الإنسان ولتمنى أن ينفق كل الدنيا حتى يزول عنه ذلك الخلل، ثم إنه تعالى يدبر أحوال بدن الإنسان على الوجه الأكمل مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك الجزء ولا بكيفية مصالحه فليكن هذا المثال حاضراً في ذهنك، ثم تأمل في جميع ما خلق الله في هذا العالم من المعادن والنبات والحيوان وجعلها مهيأة لانتفاعك بها حتى تعلم أن عقول الخلق تفنى في معرفة حكمة الرحمن في خلق الإنسان فضلاً عن سائر وجوه الإحسان، ثم الطريق إلى الشكر أن يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها {إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ} للتقصير الصادر عنكم في القيام بشكر نعمه {رَّحِيمٌ} بكم حيث لم يقطع نعمه عنكم بسبب

تقصيركم {وَٱللَّـهُ يَعْلَـمُ مَـا تُسِـرُّونَ} أي تضـمرونه مـن العقائـد والأعمال {وَمَا تُعْلِنُونَ} أي تظهرونه منهما وهذه الأصنام جمـادات لا معرفة لها بشيء أصلاً فكيف تحسن عبادتها.

{وَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَـيْئًا} أي والآلهـة الذين يعبدهم الكفار من دون الله لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً.

قرأ حفص عن عاصم «يسرون»، و «يعلنـون»، و «يـدعون» بالياء على الغيبة. لكن نقـل عـن السـمين أن قـراءة اليـاء التحتيـة شاذة في الفعليـن الأوليـن. وقـرأ أبـو بكـر عـن عاصـم «يـدعون» خاصة بالياء على المغايبة. وقرىء علـى صـيغة المبنـي للمفعـول. {وَهُمْ يُخْلَقُونَ} أي أن الأصـنام مخلوقـة للـه تعـالى منحوتـة مـن الحجارة وغيرها {أَمْوٰتٌ} أي جمادات لا روح فيها {غَيْرُ أَحْيَآءٍ} أي لا تأتيها الحياة أصلاً {وَمَـا يَشْـعُرُونَ أَيَّـانَ يُبْعَثُـونَ} أي ومـا يشـعر أولئـك الآلهـة مـتى يبعـث عبـدتهم مـن القبـور وفـي هـذا تهكـم بالمشـركين فـي أن آلهتهـم لا يعلمـون وقـت بعثهـم فكيـف وقـت جزائهم على عبادتهم. وقيل: المعنى أن هذه الأصنام لا تعرف متى يبعثها الله تعالى. قال ابن عباس: إن الله تعالى يبعث الأصنام ولها أرواح ومعها شياطينها فيؤمر بها إلـى النـار {إِلَٰهُكُـمْ إِلَـٰهٌ وٰحِـدٌ} لا يشاركه شيء في شيء {وَ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِـٱلاٰخِرَةِ} ولا يرغبـون في حصول الثواب ولا يرهبون مـن الوقـوع فـي العقـاب {قُلُـوبُهُم مُّنكِـرَةٌ} لوحدانيـة اللـه تعـالى ولكـل كلام يخـالف قـولهم {وَهُـم مُّسْتَكْبِرُونَ} عن الرجوع من الباطل إلى الحق {لاَ جَرَمَ} أي حقاً {أَنَّ ٱللَّـهَ يَعْلَـمُ مَـا يُسِـرُّونَ} مـن قلـوبهم {وَمَـا يُعْلِنُـونَ} مـن اسـتكبارهم {إِنَّـهُ لاَ يُحِـبُّ ٱلْمُسْـتَكْبِرِينَ} علـى خلقـه فمـا بالـك بالمستكبرين على التوحيد واتباع الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ} أي وإذا قـال وفـود الحـاج لأولئـك المنكريـن المسـتكبرين عمّـا أنـزل اللـه تعـالى علـى محمـد عليـه السلام {قَالُوۤاْ أَسَٰطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ} أي هذا الذي تذكرون أنه منزل من ربكم هو أكـاذيب الأوليـن ليـس فيـه شـيء مـن العلـوم والحقـائق {لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ} أي آثـامهم الخاصـة بهـم وهـي آثـام ضـلالهم {كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ} أي لم يخفف من عقابهم شـيء يـوم القيامـة بمصيبة أصابتهم في الدنيا فقوله: «ليحملوا» متعلـق «بقـالوا» ف «اللام» للعاقبة. وقوله: «يوم القيامة» ظرف «ليحملوا». {وَمِـنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ} أي وليحملوا أيضاً من جنس آثـام مـن ضـل بإضلالهم أي فيحصل للرؤساء مثل أوزار الأتباع {بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي إن هؤلاء الرؤساء يقدمون على الإضلال جهلاً منهم بما يستحقونه مـن العـذاب الشـديد فـي مقـابلته {أَلاَ سَآءَ مَـا يَـزِرُونَ} أي بئـس مـا

يحملونه من الذنوب حملهم هذا {قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُمْ مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ} أي قد رتبوا منصوبات ليمكروا بها أنبياء الله تعالى فأهلكهم الله تعالى وجعل هلاكهم مثل هلاك قوم بنوا بنياناً شديداً ودعَّموه فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم سقف بنيانهم، فأهلكهم. شبهت حال أولئك الماكرين فى تسويتهم المكايد وفي إبطاله تعالى تلك الحيل، وجعله تعالى إياها أسباباً لهلاكهم بحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين فضعضعت تلك الأساطين، فسقط عليهم السقف، فهلكوا. فهو مثل ضربه الله تعالى لمن مكر بآخر فأهلكه الله بمكره ومنه المثل السائر على ألسنة الناس من حفر لأخيه قليباً وقع فيه قريباً. {وَأَتَٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ} أي إنهم اعتمدوا على منصوباتهم ثم تولد البلاء منها بأعيانها فهؤلاء الماكرون القائلون: إن القرآن أساطير الأولين سيأتيهم العذاب العاجل من جهة لا تخطر ببالهم مثل ما أتاهم {ثُمَّ} الله تعالى {يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ} أي يذل الكفار بعذاب {وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰقُّونَ فِيهِمْ} أي يقول الله لهم تفضيحاً أين شركائي في زعمكم الذين كنتم تخاصمون الأنبياء والمؤمنين في شأن الشركاء حين بينوا لكم بطلانها.

وقرأ نافع «تشاقون» بكسر النون {قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ} أي يقول المؤمنون الذين أوتوا علماً بدلائل التوحيد حين يرون خزي الكفار وهم في الموقف: {إِنَّ ٱلْخِزْىَ} أي الفضيحة {ٱلْيَوْمَ وَ ٱلسُّوۤءَ} أي العذاب {عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّٰهُمُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ} أي عزرائيل وأعوانه {ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ} أي مستمرين على الكفار فإنهم ظلموا أنفسهم حيث عرضوها للعذاب المخلد.

وقرأ حمزة «يتوفاهم» بالياء مع الإمالة في الموضعين {فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ} أي أسلموا وأقروا لله بالعبودية عند الموت قائلين : {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوۤءٍ} أي شرك في زعمنا فتقول الملائكة {بَلَىٰ} كنتم تعملون أعظم الشرك {إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} من الشرك فلا فائدة لكم في إنكاركم {فَٱدْخُلُوۤاْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ} أي ليدخل كل صنف من الكفرة في طبقة هو موعود بها. والمراد دخولهم فيها في وقته فإن ذلك تخويف عظيم وإن تراخى المخوف به لا دخول القبر الذي هو حفرة من حفر النيران {خَٰلِدِينَ فِيهَا} أي دركات جهنم لا يخرجون منها {فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ} عن قبول التوحيد وسائر ما أتت به الأنبياء {وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ} أي خافوا الشرك وأيقنوا أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله {مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا} أي أنزل خيراً.

قال المفسرون: كان في أيام الموسم يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره فيقولون: إنه ساحر وكاهن وكذاب. فيأتي المؤمنين ويسألهم عن محمد وما أنزل الله عليه. فيقولون خيراً. أي أنزل خيراً والذي قالوه من الجواب موصوف بأنه خير {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ} أي قالوا: لا إله إلا الله مع الاعتقاد الحق {فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ} أي ثناء ورفعة وتعظيم، وهذه الجملة بدل من قوله: خيراً أو تفسيراً له وذلك أن الخير هو الوحي الذي أنزل الله تعالى فيه قوله من أحسن في الدنيا بالطاعة فله حسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة وقوله تعالى: «في هذه الدنيا» متعلق بقوله: «حسنة». {وَلَدَارُ ٱلآخِرَةِ خَيْرٌ} مما حصل لهم في الدنيا، {وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ} والمخصوص بالمدح إما محذوف تقديره دار الآخرة أو هي دار الدنيا، لأن المتقين يتزودون فيها للآخرة وأما قوله تعالى: {جَنَّٰتُ عَدْنٍ} وهذه تدل على القصور والبساتين وعلى الدوام {يَدْخُلُونَهَا} يوم القيامة صفة لجنات أو حال {تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَٰرُ} أي أنهار الخمر والماء والعسل واللبن وهذه تدل على أن هناك أبنية يرتفعون عليها وتكون الأنهار جارية من تحتهم {لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ} من أنواع المشتهيات والمتمنيات وهذه الكلمة تدل على حصول كل الخيرات والسعادات {كَذَٰلِكَ} أي مثل ذلك الجزاء الأوفى {يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ} أي كل من يتقي من الشرك والمعاصي { ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّٰهُمُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ} أي قبضتهم {طَيِّبِينَ} أي طاهرين من الكفر مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين إلى حضرة القدس فرحين ببشارة الملائكة إياهم بالجنة حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها ومن هذا حاله لا يتألم بالموت {يَقُولُونَ} أي الملائكة عند الموت وهذه حال من الملائكة وطيبين حال من المفعول {سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ} أي لا يلحقكم مكروه.

وعن محمد بن كعب القرظي قال: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا ولي الله الله يقرأ عليك السلام ويبشرك بالجنة { ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ} أي جنات عدن وهي خاصة لكم كأنكم فيها، والمراد دخولهم فيها في وقته فإن ذلك بشارة عظيمة، وإن تراخى المبشر به لا دخول القبر الذي هو روضة من رياض الجنة فإن الملائكة لما بشروهم بالجنة صارت الجنة كأنها دارهم وكأنهم فيها {بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} أي بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة {هَلْ يَنْظُرُونَ} أي ما ينتظر الكفار الذين طعنوا في القرآن وأنكروا النبوة {إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ} لقبض أرواحهم بالتهديد {أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ} أي عذاب ربك في الدنيا بهلاكهم {كَذَٰلِكَ} أي مثل فعل هؤلاء من الشرك والتكذيب

والاستهزاء {فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} من الأمم فأصابهم العذاب المعجل {وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ} بذلك فإنه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم {وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} بأن كذبوا الرسل فاستحقوا ما نزل بهم.

{فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ} أي عقاب سيئات أعمالهم {وَحَاقَ} أي وأحاط {بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ} أي عقاب استهزائهم من جوانبهم {وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ} أي من أهل مكة للرسول صلى الله عليه وسلم تكذيباً له وطعناً في الرسالة {لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ} عدم عبادتنا لشيء غيره {مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلآ ءَابَاؤُنَا} الذين نقتدي بهم في ديننا {وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ} من البحيرة والسائبة، والوصيلة والحامي وإشراكنا بالله الأوثان، وتحريمنا الأنعام، والحرث بمشيئته تعالى فهو راض بذلك، وحينئذ فلا فائدة في مجيئك إلينا بالأمر والنهي وفي إرسالك {كَذَٰلِكَ} أي مثل ذلك الفعل الشنيع {فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} من الأمم فأشركوا بالله وحرموا حله وردوا رسله، وجادلوهم بالباطل حين نهوهم عن الخطأ، وهدوهم إلى الحق {فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلاَّ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ} أي ليست وظيفة الرسل إلا تبليغ الرسالة تبليغاً واضحاً فهو واجب عليهم، وأما حصول الإيمان فلا يتعلق بالرسول {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ} من الأمم السالفة {رَّسُولاً} خاصاً بهم كما بعثناك إلى قومك {أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ} وحدوه {وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ} أي اجتنبوا عبادة ما تعبدون من دون الله، أو اجتنبوا طاعة الشيطان في دعائه لكم إلى الضلالة {فَمِنْهُم} أي من تلك الأمم {مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ} إلى الحق الذي هو عبادته {وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ} أي ثبتت {عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ} فلم يجب الرسول إلى الإيمان فضل عن الحق وعمي عن الصدق، ووقع في الكفر {فَسِيرُواْ} يا معشر كفار قريش {فِى ٱلأَرْضِ} أي فإن كنتم في شك من أخبار الرسل فسيروا في الأرض {فَٱنظُرُواْ} في أكنافها واعتبروا {كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ} بالرسل من عاد وثمود وأمثالهم لتعرفوا أن العذاب نازل بكم كما نزل بهم {إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ} أي إن تطلب يا سيد الرسل توحيد كفار قريش بجهدك فلا تقدر على ذلك {فَإِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى مَن يُضِلُّ} أي لأنه تعالى لا يخلق الهداية قسراً فيمن يخلق فيه الضلالة لسوء اختياره. وقرىء «لا يهدي» بالبناء للمفعول {وَمَا لَهُمْ مِّن نَّٰصِرِينَ} أي وليس لهم أحد يعينهم على مطلوبهم في الدنيا والآخرة من دفع العذاب عنهم {وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ} أي حلف الذين أشركوا غاية إيمانهم وإذا حلف الرجل بالله فقد حلف جهد يمينه فإن الكفار كانوا يحلفون بآبائهم

وآلهتهم فإذا كان الأمر عظيماً حلفوا بالله وهذا عطف على قوله تعالى: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ} إعلاماً بأنهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث مقسمين {لاَ يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ} فإنهم يجدون في عقولهم أن الشيء إذا صار عدماً محضاً لا يعود بعينه، بل العائد يكون شيئاً آخر ولقد رد الله تعالى عليهم أبلغ رد بقوله {بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا} أي بلى يبعثهم الله بالبعث وعداً حقاً لا خلف فيه ثابتاً على الله فينجزه لامتناع الخلف في وعده {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ} أي أهل مكة {لاَ يَعْلَمُونَ} أنهم يبعثون لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناع البعث ولجهلهم بشؤون الله تعالى من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ} أي بلى يبعثهم ليبين لمن يموت { ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ} من أمور البعث وغيرها من أمور الدين فيثيب المحق من المؤمنين ويعذب المبطل من الكافرين {وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} بالله بالإشراك وإنكار البعث والنبوة يوم القيامة {أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ} فيما أقسموا فيه وفي كل ما يقولون {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ} أي شيء كان {إِذَآ أَرَدْنَاهُ} أي وقت إرادتنا لوجوده {أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ} أي أحدث وهو خبر المبتدأ {فَيَكُونُ} أي فيحدث عقب ذلك من غير توقف، وهذا تمثيل لنفي الكلام والتعب فليس هناك قول ولا مقول له ولا أمر ولا مأمور بل هو تمثيل لسهولة حصول المقدورات عند تعلق إرادته تعالى بها، وتصوير لسرعة حدوثها، ولكن العباد خوطبوا بذلك على قدر عقولهم، ولو أراد الله خلق الدنيا وما فيها في قدر لمح البصر لقدر على ذلك، فالمعنى إنما إيجادنا لشيء عند تعلق إرادتنا به أن نوجده في أسرع ما يكون {وَ ٱلَّذِينَ هَٰجَرُواْ} من مكة إلى المدينة {فِى ٱللَّهِ} أي لإظهار دينه {مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَة} أي أرضاً كريمة آمنة وهي المدينة وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أخرجهم أهل مكة من ديارهم فهاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة وعلى هذا يكون نزول الآية في أصحاب الهجرتين فيكون نزولها في المدينة بين الهجرتين.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في ستة من الصحابة صهيب وبلال، وعمار، وخباب، وعابس وجبير أخذهم المشركون بمكة يعذبونهم ليرجعوا عن الإسلام إلى الكفر فأما بلال فيخرجونه إلى بطحاء مكة في شدة الحر ويشدونه ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول: أحد أحد، فاشتراه منهم أبو بكر وأعتقه، وأما صهيب فقال: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم، فافتدى منهم وهاجر، وأما سائرهم فقد قالوا: بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر فتركوا عذابهم،

ثم هاجروا، فبسبب هجرتهم ظهرت قوة الإسلام كما أن بنصرة الأنصار قويت شوكتهم فلذلك غلبوا على أهل مكة وعلى العرب قاطبة وعلى أهل المشرق والمغرب، وعن عمر أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال: خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أكبر {وَلاَجْرُ ٱلآخِرَةِ أَكْبَرُ} أي وللأجر الكائن في الآخرة وهو النعيم الكائن في الجنة أعظم من الأجر الكائن في الدنيا {لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} أي لو علم الكفار أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم في الدين { ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ} على أذية الكفار ومفارقة الأهل والوطن وعلى المجاهدة وبذل الأموال والأنفس في سبيل الله {وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} أي إليه خاصة يفوِّضون الأمر كله معرضين عما سواه {وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ} يا أكرم الرسل إلى الأمم من طوائف البشر {إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ} بواسطة الملائكة وهذا رد لقريش حين قالوا: الله أعلى وأعظم من أن يكون رسوله واحداً من البشر، بل لو أراد بعثة رسول إلينا لبعث ملكاً. {فَسْـَٔالُواْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ} أي أهل العلم بأخبار الماضين فإذا سألوهم فلا بد أن يجيبوا بأن الرسل الذين أرسلوا إليهم كانوا بشراً فإذا أخبروهم بذلك زالت الشبهة من قلوبهم {إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ} أن الرسل من البشر {بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ} متعلق بمحذوف على أنه صفة لرجالاً أي رجالاً ملتبسين بالمعجزات الدالة على صدق من يدعي الرسالة وبالتكاليف التي يبلغونها من الله تعالى إلى العباد، أو متعلق بيوحى، أي يوحى إليهم بالحجج الواضحة وبالكتب، أو متعلق بذلك، أي فاسألوا أهل العلم بالحجج وبالكتب القديمة من التوراة والإنجيل، أو متعلق بلا تعلمون أي إن كنتم لا تعلمون الله لم يرسل الرسل إلا إنسياً بالعلامات وبخبر كتب الأولين فاسألوا كل من يذكر بعلم وتحقيق، واسألوا أهل الكتب الذين يعرفون معاني كتب الله تعالى {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ} أي القرآن سمي ذكراً، لأن فيه تنبيهاً للغافلين {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ} كافة {مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} في ذلك الذكر من الأحكام والشرائع وغير ذلك من أحوال الأمم المهلكة بأفانين العذاب على حسب أعمالهم الموجبة لذلك {وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} فيما نزل إليهم فيتنبهوا لما فيه من العبر، ويحترزوا عما يؤدي إلى مثل ما أصاب الأولين من العذاب {أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّئَاتِ} أي سعوا من أهل مكة ومن حول المدينة في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه على سبيل الخفية {أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلأَرْضَ} كما خسف بقارون وأصحابه {أَوْ يَأتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ} أي في حال غفلتهم فيهلكهم بغتة

كما فعل بقوم لوط {أَوْ يَأْخُذَهُمْ} بالعقوبة {فِى تَقَلُّبِهِمْ} أي في أسفارهم وحركتهم إقبالاً وإدباراً {فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ} أي وهم لا يعجزون الله بسبب سفرهم في البلاد البعيدة بل يدركهم الله حيث كانوا.

{أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ} أي على أن ينقص شيئاً بعد شيء في أموالهم وأنفسهم حتى يهلكوا، أو على مخافة من العذاب بأن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوفون {فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} حيث لا يعاجلكم بالعقوبة ويحلم عنكم مع استحقاقكم لها {أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَٰلُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَ ٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا} أي ألم ينظر أهل مكة ولم يروا بأبصارهم إلى جسم قائم له ظل من جبل وشجر وبناء يرجع ظلاله من المشرق ومن المغرب واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد {لِلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ} أي منقادون لقدرة الله تعالى وتدبيره ولما وصفت الظلال بالانقياد لأمره تعالى أشبهت العقلاء، فعبر عنها بلفظ «من يعقل». وقرأ حمزة والكسائي «تروا» بالتاء على الخطاب. وقرأ أبو عمرو وحده «تتفيؤا» بالتاء. {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ} من الشمس والقمر والنجوم {وَمَا فِى ٱلأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَ ٱلْمَلَٰئِكَةُ} عطف على «ما في السمٰوات».

ولما بيّن الله تعالى أولاً أن الجمادات بأسرها منقادة لله تعالى. بيَّن بهذه الآية أن الحيوانات بأسرها منقادة لله تعالى فأخسها الدواب وأشرفها الملائكة. وذلك دليل على أن كل المخلوقات منقادة لله تعالى. {وَهُمْ} أي الملائكة مع علو شأنهم {لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} عن عبادته تعالى {يَخَٰفُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ} وهذه الجملة بيان لقوله: «لا يستكبرون» أو حال من ضميره، أي خائفين لمالك أمرهم خوف هيبة وإجلال وهو فوقهم بالقهر {وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} به من الطاعات والتدبيرات فبواطنهم وظواهرهم مبرأة من الأخلاق الفاسدة والأفعال الباطلة {وَقَالَ ٱللَّهُ} لجميع المكلفين: {لاَ تَتَّخِذُواْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ} أي لا تعبدوا الله والأصنام ولما بين الله تعالى أولاً أن كل ما سوى الله سواء كان من عالم الأرواح، أو من عالم الأجسام فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى أتبعه في هذه الآية بالنهي عن الشرك. والمقصود من التكرير تأكيد التنفير عن الإشراك بالله، وتكميل وقوف العقل على ما فيه من القبح {إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ} أي لما دلت الدلائل السابقة على أنه لا بد للعالم من الإله وقد ثبت أن وجود الإلهين محال ثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد {فَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ} أي إن كنتم راهبين شيئاً فارهبوني لا غير فإني ذلك الواحد الذي يسجد له ما في

السمٰوات والأرض ولما كان الإلٰه واحداً والواجب لذاته واحداً كـان كل ما سواه حاصلاً بتخليقه وإيجاده فثبـت أن تكـون أفعـال العبـاد مخلوقة لله تعالى، لأن أفعال العباد مـن جملـة مـا فـي السـمٰوات والأرض ووجـب أن يكـون جميـع المخلوقـات فـي ملكـه وتصـرفه وتحت قهره. وذلك قوله تعالى: {وَلَهُ مَـا فِـى ٱلسَّـمٰوٰتِ وَٱلاٌّرْضِ} أي خلقاً وملكاً {وَلَهُ ٱلـدِّينُ وَاصِـبًا} أي للـه تعـالى الطاعـة دائمـاً فليس من أحد يطاع إلا انقطعت تلك الطاعة بالموت أو بسبب في حال الحياة إلا الله تعالى فإن طاعته واجبة أبداً، وفـي الآيـة دقيقـة أخرى فمعنى قوله تعالى: {لَّهُ مَا فِي ٱلسَّـمٰوَاتِ وٱلاٌّرْضِ} أن كـل ما سوى الله محتاج في انقلابه من العدم إلى الوجود ومن الوجـود إلى العدم إلى مخصص، ومعنى قوله تعالى: {وَلَـهُ ٱلـدِّينُ وَاصِـبًا} أن هذا الاحتياج إلى المرجح حاصـل دائمـاً أبـداً، لأن الممكـن حـال بقائه لا يستغني عن المرجح، لأن علة الحاجة هي الإمكان وهو مـن لوازم الماهية فوجب أن تكون الحاجة حاصـلة حـال حـدوثها وحـال بقائها {أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ} أي إنكـم بعـد مـا عرفتـم أن إلـه العـالم واحد، وأن كل ما سواه محتاج إليه فـي وقـت حـدوثه، وفـي وقـت دوامه فبعد العلم بهذه الأصول كيف يعقل أن يكون للإنسـان رغبـة في غير الله أو رهبة من غير الله تعالى {وَمَا بِكُـم مِّـن نِّعْمَـةٍ فَمِـنَ ٱللَّهِ} أي أيّ شيء يصاحبكم من نعمة أية نعمة كانت فهي من الله فيجب على العاقل أن لا يخاف إلا الله وأن لا يشكر إلا الله {ثُـمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ} كالأسقام {فَـإِلَيْهِ تَجْـأرُونَ} أي ترفعـون أصـواتكم بالاستغاثة في كشفه لا إلى غيـره {ثُـمَّ إِذَا كَشَـفَ ٱلضُّـرَّ عَنْكُـمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم} أي إذا فريق كافر وهم أنتم {بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} غيـره وهـذا ضـلال كامـل {لِيَكْفُـرُواْ بِمَـآ ءاتَيْنٰهُـمْ} أي إن عاقبـة تلـك التضرعات ما كانت إلا كفران نعمة إزالة المكروه عنهم. وقيل: إن هذه «اللام» لام الأمر الوارد للتهديد، كقوله تعالى: {فَتَمَتَّعُـواْ} أي عيشوا في الكفر {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} عاقبة أمركم ومـا ينـزل بكـم من العذاب.

{وَيَجْعَلُونَ} أي المشركون {لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ} أي للأصنام التي لا يعلم المشركون أنها تضر من حيث عبادتها ولا تنفـع {نَصِـيبًا مِّمَّـا رَزَقْنٰهُمْ} من الزرع والأنعام وغيرهما تقرباً إليهـا {تَـٱللَّهِ لَتُسْـأَلُنَّ} يوم القيامة سؤال توبيخ {عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ} أي تكذبون على اللـه من أنه أمركم بذلك الجعل {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنٰتِ} أي يقول خزاعة وكنانة الملائكة بنات الله {سُبْحَانَهُ} نزه الله ذاته عن نسـبة الولـد إليه وأمر اللـه تعـالى الخلـق بـالتعجب مـن جراءتهـم علـى وصـف الملائكة بالأنوثـة ثـم نسـبتها بالولديـة إلـى اللـه تعـالى {وَلَهُـمْ مَّـا

يَشْتَهُونَ} ويجعلون لأنفسهم ما يختارون من البنين {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِٱلأُنْثَىٰ} أي والحال أنه إذا أخبر بولادة الأنثى {ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا} أي صار وجهه متغيراً تغير معتم من الحياء من الناس {وَهُوَ كَظِيمٌ} أي ممتلىء غماً وحزناً وغيظاً من زوجته فكيف ينسب البنات إليه تعالىٰ وجملة «وإذا بشر» حال من الواو في «ويجعلون».

{يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ} أي يختفي من قومه {مِن سُوۤءِ مَا بُشِّرَ بِهِ} أي من أجل كراهية الأنثى التي أخبر بها من حيث كونها لا تكتسب، وكونها يخاف عليها الزنا، وكان الرجل في الجاهلية إذا ظهر آثار الطلق بامرأته اختفى عن القوم إلى أن يعلم ما يولد له فإن كان ذكراً فرح به، وإن كان أنثى حزن ولم يظهر للناس أياماً يدبر فيها ماذا يصنع بها، وذلك قوله تعالى: {أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ} أي أيحفظ ما بشر به من الأنثى مع رضاه بذل نفسه {أَمْ يَدُسُّهُ فِى ٱلتُّرَابِ} أي أم يخفيه في التراب بالوأد فالعرب كانوا مختلفين في قتل البنات فمنهم من يحفر الحفيرة ويدفنها فيها إلى أن تموت، ومنهم من يرميها من شاهق جبل، ومنهم من يغرقها، ومنهم من يذبحها وهم كانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية وتارة خوفاً من الفقر ولزوم النفقة {أَلاَ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ} حكمهم هذا حيث يجعلون له تعالى ما عادته عندهم حقارة. والحال أنهم يتباعدون عنه {لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ} أي بالبعث بعد الموت {مَثَلُ ٱلسَّوْءِ} أي الصفة القبيحة وهي احتياجهم إلى الولد ليقوم مقامهم عند موتهم وللاستعلاء به وكراهتهم الإناث خوف الفقر والعار مع احتياجهم إليهن للنكاح {وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلأَعْلَىٰ} أي الصفة المقدسة وهي صفة الألوهية المنزهة عن صفات المخلوقين وعن الولد {وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ} أي المنفرد بكمال القدرة {ٱلْحَكِيمُ} أي الذي يفعل ما يفعل بالحكمة البالغة {وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا} أي الأرض {مِن دَآبَّةٍ} أي لو يؤاخذهم الله بما كسبوا من كفر ومعصية لا يبقى لهم نسل فيلزم أن لا يبقى في العالم أحد من الناس فحينئذ لا يبقى في الأرض أحد من الدواب أيضاً، لأنها مخلوقة لمنافع البشر {وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ} أي معين عند الله تعالى لأعمارهم ليتوالدوا {فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ} عن ذلك الأجل {سَاعَةً} أي فذة {وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} وإنما ذكر الاستقدام مع أنه لا يتصور عند مجيء الأجل مبالغة في بيان عدم الاستئخار بنظمه في سلك ما يمتنع {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ} أي وينسبون إليه تعالى البنات التي يكرهونها لأنفسهم {وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ} بدل من الكذب أي يصفون

أنفسهم بأنهم فازوا برضوان الله تعالى بسبب إثبات البنات له تعالى وبأنهم على الدين الحق {لاَ جَرَمَ} أي ثبت {أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ} التي ليس وراء عذابها عذاب {وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ} أي متروكون في النار.

وقرأ نافع وقتيبة عن الكسائي بكسر الراء أي مفرطين على أنفسهم في الذنوب {تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ} رسلاً {إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ} فدعوهم إلى الحق {فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} القبيحة فرأوها حسنة فكذبوا الرسل {فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ} أي فالشيطان متولٍ أمورهم في الدنيا بإغوائهم وقرينهم في النار {وَلَهُمْ} في الآخرة {عَذَابٌ أَلِيمٌ} هو عذاب النار.

{وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ} أي القرآن {إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ} أي إلا لتبين للناس بواسطة بيانات القرآن الأشياء التي اختلفوا فيها من التوحيد والشرك والجبر والقدر وأحوال المعاد والأحكام كتحريم الميتة وتحليل نحو البحيرة {وَهُدًى وَرَحْمَةً} أي وللهداية من الضلالة وللرحمة من العذاب {لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} بالقرآن لأنهم المغتنمون آثاره {وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ} أي والله خلق السماء على وجه ينزل منه الماء، ويصير ذلك الماء سبباً لنبات الزرع والشجر ولخروج النور والثمر {إِنَّ فِى ذَٰلِكَ} أي في إنزال الماء وإحياء الأرض اليابسة {لآيَةً} دالة على وحدته تعالى وعلمه وقدرته وحكمته {لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} هذه المواعظ سماع تفكر، لأن من لم يسمع بقلبه فكأنه أصم {وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً} عظيمة إذا تفكرتم فيها {نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهِ} أي الأنعام.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي «نسقيكم» بضم النون، والباقون بالفتح. {مِن بَيْنِ فَرْثٍ} أي روث في الكرش {وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا} أي لا يخالطه الفرث ولا الدم وقوله: «لبناً» مفعول ثانٍ. وقوله: «من بين» حال من «ما» التي للتبعيض، أو للابتداء، أو من لبناً. وعن ابن عباس أنه قال: إذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثاً وأعلاه دماً، وأوسطه لبناً فيجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، ويبقى الفرث كما هو {سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ} أي جارياً في حلوقهم لذيذاً فلا يغص أحد باللبن {وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلأَعْنَٰبِ} أي ونسقيكم من عصير ثمرات النخيل والأعناب {تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا} أي خمراً {وَرِزْقًا حَسَنًا} كالدبس والخل، والتمر والزبيب والله تعالى ذكر ما في هذه الأشياء من المنافع، وخاطب بها المشركين والخمر من أشربتهم فهي منفعة في حقهم، ثم نبه في هذه الآية على تحريمها،

لأنه ميَّز بينهما وبين الرزق الحسن في الـذكر، فـوجب أن لا تكـون الخمر رزقاً حسناً والخمر يكون حسـناً بحسـب الشـهوة ولا يكـون حسناً بحسب الشريعة، وهذه الآية جامعة بين العتاب والمنة، وهذا إذا كانت الخمر محرمة قبل نزولها وإن كانت سـابقة النـزول علـى تحريم الخمر فهي دالة على كراهتها {إِنَّ فِى ذٰلِكَ} أي في إخـراج اللبن من بين الروث والدم وفي إخراج الخمر والرزق الحسن مـن الثمـرات {لآيَـةً} دالـة علـى قـدرته تعـالى {لِّقَـوْمٍ يَعْقِلُـونَ} أي يستعملون عقولهم بالتأمل في الآيات فيعلمون أن هذه الأحـوال لا يقدر عليها إلا الله تعالى {وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْـلِ} أي ألْهَـمَ ربـك النحل: {أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًـا} أي أوكـاراً {وَمِـنَ ٱلشَّـجَرِ} أي مما يوافق مصالحك ويليق بك {وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} أي مما يرفعـه النـاس ويبنـونه لـك، أي إن اللـه قـدَّر فـي أنفـس النحـل الأعمـال العجيبة التي تعجز عنها العقلاء مـن البشـر، وذلـك أن النحـل تبنـي بيوتاً على شكل مسدس من أضلاع متسـاوية لا يزيـد بعضـها علـى بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثـة أو مربعـة أو غير ذلك من الأشكال لكان فيهـا فـرج خاليـة ضـائعة. فإلهـام ذلـك الحيـوان الضـعيف بهـذه الحكمـة الخفيـة والدقيقـة اللطيفـة مـن الأعاجيب، والعقلاء من البشر لا يمكنهم بنـاء مثـل تلـك الـبيوت إلا بآلات مثل المسطر والفرجار.

{ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرٰتِ} أي من كل ثمرة تشـتهيها مرهـا وحلوها {فَ ٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ} أي فإذا أكلتها فاسـلكي راجعـة إلـى بيوتك سبل ربك {ذُلُلاً} حـال مـن السـبل أي مسـخرة لـك أو مـن الضمير في «اسلكي»، أي فاسـلكي منقـادة لمـا أمـرت بـه، ولـذا يقسم يعسوبها أعمالهـا بينهـا فبعـض يعمـل الشـمع وبعـض يعمـل العسل وبعض يستقي الماء ويصبه في البيت، وبعض يبني الـبيوت. {يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ} أي عسل {مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ} مـن أبيـض وأسود، وأصفر وأحمر على قدر مـا تأكـل مـن الثمـار والأزهـار، أو بحسـب اختلاف الفصـل أو سـن النحـل فيسـتحيل المـأكول فـي بطونهـا عسـلاً بقـدرة اللـه تعـالى، ثـم يخـرج مـن أفواهها يسـيل كاللعاب {فِيهِ} أي في ذلك الشراب {شِفَآءٌ لِلنَّاسِ} مـن الأوجـاع لا سيما البلغمية فإنه فيها عظيم النفع. وعن ابن مسـعود: العسـل شـفاء مـن كـل داء، والقـرآن شـفاء لمـا فـي الصـدور فعليكـم بالشـفاءين العسـل والقـرآن. {إِنَّ فِى ذٰلِـكَ} أي فـي اختصـاص النحل بتلك العلوم الدقيقة وفي اهتدائها إلى جمع الأجزاء العسـلية من أطراف الأشجار والأوراق {لآيَةً} أي لعبرة {لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّـرُونَ} فإن من تفكَّر في شؤون النحل جزم قطعـاً بـأن لهـا خالقـاً قـادراً

حكيماً يلهمها ذلك {وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ} فإن خالق الأبدان هو الله تعالى {ثُمَّ يَتَوَفَّٰكُمْ} أي يقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم فإن الحياة والموت إنما حصلا بتخليق الله تعالى وبتقديره {وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ} أي أحقره وهو الهرم.

قال العلماء: عمر الإنسان له أربع مراتب: أولها: سن النشوء وهو من أول العمر إلى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب. وثانيها: سن الوقوف وهي من ذلك إلى أربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل. وثالثها: سن الانحطاط القليل وهو سن الكهولة وهو من ذلك إلى ستين سنة. ورابعها: سن الانحطاط الكبير وهو سن الشيخوخة وهو من ذلك إلى خمسة وستين سنة وفيه يتبين النقص والهرم. قال علي بن أبي طالب: أرذل العمر خمسة وسبعون سنة. وقال قتادة: تسعون سنة. وقال السدي: إنه الخرف أي زوال العقل. وقيل: والمسلم لا يزداد بسبب طول العمر إلا كرامة على الله تعالى. وقال عكرمة: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر {لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا} أي ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولية في نقصان العقل وسوء الفهم وفي النسيان {إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ} بمقادير أعمالكم {قَدِيرٌ} على تحويلكم من حال إلى حال وكان الإنسان ميتاً حين كان نطفة، ثم صار حياً، ثم مات فلما كان الموت الأول جائزاً كان عود الموت جائزاً فكذلك لما كانت الحياة الأولى جائزة وجب أن يكون عود الحياة جائزاً في المرة الثانية، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أن القول بالبعث والنشر والحشر حق. {وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ} أي فاوت بينكم في الرزق كما فاوت بينكم في الذكاء، والبلادة، والحسن، والقبح، والصحة، والسقم {فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ} أي فليس الذين فضلوا في الرزق على غيرهم بجاعلي رزقهم لعبيدهم حتى تكون عبيدهم فيه معهم سواء في الملك وهم أمثالهم في البشرية والمخلوقية والمرزوقية. قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في نصارى نجران حين قالوا: إن عيسى ابن مريم ابن الله فالمعنى أنكم لا تشركون عبيدكم فيما ملكتم فتكونون سواء فكيف جعلتم عبدي عيسى ابناً لي وشريكاً بي في الإلهية {أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ} فإن من أثبت لله شريكاً فقد أسند إليه بعض الخيرات فكان جاحداً لكونها من عند الله تعالى، وأيضاً إن أهل الطبائع وأهل النجوم يضيفون أكثر هذه النعم إلى الطبائع وإلى النجوم وذلك يوجب كونهم جاحدين لكونها من الله تعالى. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر «تجحدون» بالتاء على الخطاب.

{وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ} أي من جنسكم {أَزْوَاجًا} أي زوجات لتأنسوا بها وتقيموا بها مصالحكم. قال الأطباء: والتفاوت بين الذكر والأنثى إن الذكر أسخن مزاجاً، والأنثى أكثر رطوبة، فالمني إذا انصب إلى الخصية اليمنى من الرجل، ثم انصب منها إلى الجانب الأيمن من الرحم كان الولد ذكراً تاماً في الذكورة. وإن انصب إلى الخصية اليسرى من الرجل ثم انصب منها إلى الجانب الأيسر من الرحم كان الولد أنثى تاماً في الأنوثة، وإن انصب إلى الخصية اليمنى ثم انصب منها إلى الجانب الأيسر كان الولد ذكراً في طبيعة الإناث، وإن انصب إلى الخصية اليسرى، ثم انصب منها إلى الجانب الأيمن من الرحم كان الولد أنثى في طبيعة الذكور {وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَٰجِكُم} أي من نسائكم {بَنِينَ وَحَفَدَةً} أي خدماً يسرعون في طاعتكم وهم إما أولاد الأولاد وإما البنات فإنهن يخدمن البيوت أتم خدمة وإما الإختان على البنات أي فيحصل لهم الإختان بسبب البنات {وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ} أي بعض اللذائذ من النبات والحيوان فالمرزوق في الدنيا أنموذج لما في الآخرة وكل الطيبات في الجنة {أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ} أي أيكفرون بالله الذي شأنه ذلك المذكور ويؤمنون بالباطل بأن يحرموا على أنفسهم طيبات أحلها الله لهم مثل البحيرة والسائبة والوصيلة، ويبيحوا لأنفسهم محرمات حرمها الله عليهم وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النصب أي لم يحكمون بتلك الأحكام الباطلة {وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} أي وبأنعام الله في تحليل الطيبات وتحريم الخبيثات يجحدون {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ شَيْئًا} أي أيعبدون الأصنام التي لا تملك لعبدتهم رزقاً من المطر والنبات لا قليلاً ولا كثير، فشيئاً بدل من رزقاً {وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ} أي وليس للأصنام استطاعة تحصيل الملك وهذا معطوف على ما لا يملك وعبر عن الأصنام بلفظ ما اعتباراً للحقيقة، وبلفظ جمع العقلاء اعتباراً لاعتقادهم فيها أنها آلهة {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلأَمْثَالَ} أي لا تشبهوا الله تعالى بخلقه في شأن من الشؤون فإن عبدة الأوثان كانوا يقولون: إن إله العالم أعظم من أن يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواكب أو هذه الأصنام، ثم إن الكواكب والأصنام عبيد الإله الأكبر الأعظم فإن أصاغر الناس يخدمون أكابر خدم الملك وأولئك الأكابر يخدمون الملك فكذا ههنا فعند هذا قال الله تعالى لهم: اتركوا عبادة هذه الأصنام والكواكب ولا تجعلوا لله الأمثال التي ذكرتموها وكونوا مخلصين في عبادة الإله القدير الحكيم {إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ} أن خطأ قولكم الاشتغال بعبادة عبيد الملك أدخل في

التعظيم من الاشتغال بعبادة نفس الملك، لأن هذا الدليل قياس، والقياس يجب تركه عند ورود النص {وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} ذلك فتقعون في مهاوي الضلال {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً} بالعبد والحر {عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ} من التصرفات {وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا} أي مستحسناً عند الناس مرضياً {فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا} أي حال السر والجهر {هَلْ يَسْتَوُونَ} أي هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بتلك الصفات مع أن الفريقين سيان في البشرية والمخلوقية لله تعالى، وأن ما ينفقه الأحرار ليس مما لهم دخل في إيجاده بل هو مما أعطاه الله تعالى إياهم فحيث لم يستو الفريقان فما ظنكم برب العالمين حيث تشركون به ما لا ذليل أذل منه وهو الأصنام.

والمعنى لو فرضنا عبداً مملوكاً لا يقدر على التصرف، وحراً غنياً كريماً كثير الإنفاق في كل وقت، فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الصورة البشرية، فكيف يجوز للعاقل أن يسوي بين الله القادر على الرزق وبين الأصنام التي لا تقدر ألبتة. {ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ} أي كل الحمد له تعالى لأنه معطي جميع النعم لا يستحقه أحد غيره فضلاً عن استحقاق العبادة {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} إن كل الحمد لله وحده فيسندون نعمه تعالى إلى غيره ويعبدونه لأجلها، وبعض الكفار يعلمون ذلك وإنما لا يعلمون سبب الحمد عناداً كقوله تعالى: يعرفون نعمة الله، ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون. {وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ} أي الذي لا يحسن الكلام ولا يعقل {لاَ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ} للعجز التام وللنقصان الكامل {وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ} أي هذا الأبكم ثقيل على من يعوله {أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ} أي أينما يرسله من يلي أمره في وجه معين لا يأتِ بمطلوب لأنه عاجز لا يحسن شيئاً ولا يفهم {هَلْ يَسْتَوِى هُوَ} أي هذا الموصوف بهذه الصفات الأربع {وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ} أي من هو منطيق فهم ينفع الناس بحثهم على العدل {وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أي وهو عادل مبرأ عن العبث وإذا ثبت في بديهة العقل أن الأبكم العاجز لا يساوي الناطق القادر الكامل في الفضل والشرف مع استوائهما في البشرية، فلأن نحكم بأن الجماد لا يكون مساوياً لرب العالمين في المعبودية أولى.

{وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ} أي ولله تعالى خاصة الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة، فإن علمه تعالى حضوري وتحقق الغيب في أنفسها علم بالنسبة إليه تعالى. وهذا بيان كمال

العلم. {وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ} أي وما أمر إقامة الساعة وهي إماتة الأحياء وإحياء الأموات من الأولين والآخرين، وتبديل صور الأكوان أجمعين إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها في سهولته {أَوْ هُوَ أَقْرَبُ} أي بل أمر إقامة الساعة أقرب من طرف العين في السرعة بأن يكون في زمان نصف تلك الحركة فالله تعالى يحيي الخلق دفعة، وهي في جزء غير منقسم، وهذا بيان كمال القدرة {إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ} فإن الله تعالى متى أراد شيئاً إيجاده أو إعدامه حصل في أسرع ما كان {وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا} أي غير عارفين شيئاً أصلاً {وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلأَبْصَٰرَ وَٱلأَفْئِدَةَ} أي جعل لكم هذه الأشياء آلات تحصلون بها المعرفة {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي لكي تستعملوها في شكر ما أنعم الله به عليكم طوراً غبّ طور فتسمعوا مواعظ الله وتبصروا دلائل الله وتعقلوا عظمة الله {أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ ٱلطَّيْرِ} أي ألم ينظر كفار مكة بأبصارهم إليها.

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «تروا» بالتاء على خطاب العامة {مُسَخَّرٰتٍ} أي مذللات للطيران {فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ} أي في الهواء المتباعد من الأرض. قال كعب الأحبار: إن الطير ترتفع في الجو مسافة اثني عشر ميلاً، ولا ترتفع فوق ذلك {مَا يُمْسِكُهُنَّ} في الجو حين قبض أجنحتهن وبسطها ووقوفهن {إِلاَّ ٱللَّهُ} بقدرته الواسعة فإن جسد الطير ثقيل يمتنع بقاؤه في الجو معلقاً من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه، فبقاؤه في الجو معلقاً فعله وحاصل باختياره، فثبت أن خالق فعل العبد هو الله تعالى. {إِنَّ فِى ذٰلِكَ} أي تسخير الطير للطيران بأن جعل لها أجنحة خفيفة وأذناباً كذلك فإذا بسطت أجنحتها وأذنابها تخرق ما بين يديها من الهواء {لآيٰتٍ} أي لعلامات لوحدانية الله تعالى {لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} أي يصدقون أن إمساكهن من الله تعالى فإنه تعالى أعطى الطير جناحاً يبسطه مرة ويكسره مرة أخرى، وخلق الهواء خلقة رقيقة يسهل الطيران بسبب خرقه، ولولا ذلك لما أمكن الطيران {وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ} التي تبنونها {سَكَنًا} أي موضعاً تسكنون فيه {وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ ٱلأَنْعَٰمِ بُيُوتًا} مغايرة لبيوتكم المعهودة هي الخيام {تَسْتَخِفُّونَهَا} أي تجدونها خفيفة عليكم في حملها ونقلها ونقضها في أسفاركم، {يَوْمَ ظَعْنِكُمْ} أي وقت سيركم في أسفاركم. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وبفتح العين. {وَيَوْمَ إِقَٰمَتِكُمْ} أي وقت نزولكم في الضرب {وَمِنْ أَصْوَافِهَا} أي الأنعام {وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثاً} أي وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل

وأشعار المعز أنواع متاع البيت من الفرش والأكسية {وَمَتٰعاً} أي ما ينتفع به في البيت خاصة ويتزين به {إِلَىٰ حِينٍ} أي إلى وقت البلاء.

{وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ} من غير صنع من جهتكم {ظِلَٰلاً} أي ما يستظلون به من شدة الحر؛ وهي ظلال الجدران والأشجار والجبال والغمام. {وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنٰاناً} أي مواضع تستكنون فيها من شدة البرد والحر من الكهوف والغيران والسروب {وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ} أي ثياباً من القطن والكتان والصوف وغيرها {تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ} في الصيف والبرد في الشتاء ولم يذكر الله تعالى وقاية البرد لتقدمه في قوله تعالى فيها دفء {وَسَرَٰبِيلَ} أي جواشن {تَقِيكُم بَأْسَكُمْ} أي الشدة التي تصل إلى بعضكم من بعض في الحرب من الطعن والضرب والرمي {كَذَلِكَ} أي مثل ما خلق الله هذه الأشياء لكم وأنع م بها عليكم {يُتِمُّ نِعْمَتَهُ} في الدنيا {عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ} يا أهل مكة {تُسْلِمُونَ} أي تؤمنون به تعالى وتنقادون لأمره. وقرىء «تسلمون» بفتح التاء واللام، أي لكي تسلموا من الجراحات أو من الشرك {فَإِن تَوَلَّوْاْ} أي أعرضوا عن الإسلام وآثروا متابعة الآباء فلا نقص من جهتك {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ} أي لأن وظيفتك هي البلاغ الواضح فقد فعلته {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ} أي يقرون أن هذه النعم كلها من الله {ثُمَّ يُنكِرُونَهَا} أي لا يشكرونها بالتوحيد لأنهم قالوا: إنما حصلت هذه النعم بشفاعة هذه الأصنام {وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ} أي المنكرون بقلوبهم غير مقرين بأن هذه النعم من الله {وَيَوْمَ نَبْعَثُ} أي وخوفهم يوم نأتي {مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا} يشهد لهم بالإيمان وعليهم بالكفر وهو نبيها، {ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ} في الاعتذار وفي كثرة الكلام ليظهر لهم كونهم آيسين من رحمة الله تعالى {وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} أي لا يكلفون أن يرضوا ربهم بالعبادات فلا يقال لهم: ارضوا ربكم بالتوبة لأن الآخرة ليست بدار عمل وإنما هي دار الجزاء {وَإِذَا رَأَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ} أنفسهم بالكفر {ٱلْعَذَابَ} أي عذاب جهنم بعد شهادة الشهداء {فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ} ذلك العذاب {وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ} أي يمهلون فعذابهم يكون دائماً لأن التوبة هناك غير موجودة {وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ} أي إذا أبصروا يوم القيامة {شُرَكَآءَهُمْ} أي الأصنام التي يسمونها شركاء الله تعالى {قَالُواْ رَبَّنَا هَٰؤُلآءِ شُرَكَآؤُنَا} أي آلهتنا {ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْاْ} أي نعبدهم {مِن دُونِكَ} أي هؤلاء الذين كنا نقول: إنهم شركاء الله في المعبودية {فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ} أي فبادر شركاؤهم بالجواب إلى المشركين بقولهم: إنكم لكاذبون

في قولكم إنا نستحق العبادة وإنكم عبدتمونا حقيقة بل إنما عبدتم أهواءكم. والمعنى أنه تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق في تلك الأصنام حتى تقول هذا القول.

{وَأَلْقَوْاْ إِلَىٰ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ} أي أسرع المشركون إلى الله يومئذ الانقياد لحكم الله فأقروا بالبراءة عن الشركاء وبربوبية الله بعد أن كانوا في الدنيا متكبرين عنه لما عجزوا عن الجواب لكن الانقياد في هذا اليوم لا ينفعهم لانقطاع التكليف فيه {وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} أي ذهب عنهم افتراؤهم على الله من أن لله شريكاً وبطل أملهم من أن آلهتهم تشفع لهم عند الله تعالى {ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} في أنفسهم {وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ} أي منعوا الناس عن الدخول في الإسلام وحملوهم على الكفر {زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ} أي بحيات وعقارب، وجوع وعطش، وزمهرير وغير ذلك فيخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة البرد إلى النار {بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ} بذلك الصد {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ} وهو أعضاؤهم. فالله تعالى ينطق عشرة من أعضاء الإنسان حتى إنها تشهد عليه وهي العينان والأذنان، والرجلان، واليدان، والجلد واللسان {وَجِئْنَا بِكَ} يا سيد الرسل {شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ} أي الأمم كلهم {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ} أي القرآن {تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ} من أمور الدين ينص فيه على بعضها وبإحالته لبعضها على السنّة أو على الإجماع، أو على القياس فكانت السنّة والإجماع والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب {وَهُدًى وَرَحْمَةً} للعالمين فإن حرمان الكفرة من مغانم آثار الكتاب من تفريطهم لا من جهة الكتاب {وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ} خاصة لأنهم المنتفعون بذلك {إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ} أي بالتوسط في الأمور وهو رأس الفضائل كلها فيندرج تحته فضيلة القوة العقلية، فالحكمة متوسطة بين الحرمزة والبلادة، وفضيلة القوة الشهوية البهيمية، فالعفة متوسطة بين الخلاعة والخمود وفضيلة القوة الغضبية السبعية فالشجاعة متوسطة بين التهور والجبن ويندرج فيه أيضاً الحكم الاعتقادية، فالتوحيد متوسط بين التعطيل والتشريك، فنفي الإله تعطيل محض وإثبات أكثر من إله واحد تشريك. والعدل هو إثبات الإله الواحد وهو قول: لا إله إلا الله، والقول بالكسب متوسط بين الجبر والقدر فإن القول: بأن العبد ليس له قدرة واختيار جبر محض. والقول: بأن العبد مستقل بأفعاله قدر محض. والعدل أن يقال: إن العبد يفعل الفعل لكن بواسطة قدرة وداعية يخلقهما الله تعالى فيه، والقول: بأن الله تعالى لا يؤاخذ عبده على شيء من الذنوب مساهلة عظيمة،

والقول: بأنه تعالى يخلد في النار عبده الآتي بالمعصية الواحدة تشديد عظيم والعدل هو القول بأنه تعالى يخرج من النار كل من اعتقد أنه لا إله إلا الله ويندرج تحته أيضاً الحكم العملية، فالتعبد بأداء الواجبات متوسط بين البطالة والترهب. والختان: مأمور به في شريعتنا، فإن إبقاء الجلدة مبالغة في تقوية اللذة والإخصاء وقطع الآلات كما عليه المانوية إفراط، فكانت الشريعة إنما أمرت بالختان سعياً في تقليل تلك اللذة حتى يصير ميل الإنسان إلى قضاء شهوة الجماع إلى حد الاعتدال، لئلا تصير الرغبة فيه غالبة على الطبع ويندرج تحته أيضاً الحكم الخلقية، فالجود متوسط بين البخل والتبذير وشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسط بين التشديد والتساهل قال الله تعالى: {وَكَذٰلِكَ جَعَلْنٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} (البقرة: 341) أي متباعدين عن طرفي الإفراط والتفريط في كل الأمور. ولما بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في العبادات قال تعالى: {طه. مَا أَنَزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءانَ لِتَشْقَىٰ} (طه: 1) ولما أخذ قوم في المساهلة قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنٰكُمْ عَبَثاً} (المؤمنون:) والمطلوب رعاية العدل بين طرفي الإفراط والتفريط {وَٱلإِحْسَانِ} أي المبالغة في أداء الطاعات إما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل، وإما بحسب الكيفية كالاستغراق في شهود مقامات الربوبية. والحاصل أن العدل عبارة عن القدر الواجب والإحسان عبارة عن الزيادة في ذلك {وَإِيتَآءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ} أي إعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه.

قال صلى الله عليه وسلم: «إن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم» {وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ} أي المعاصي كلها {وَ ٱلْمُنْكَرِ} وهو ما لا يعرف في شريعة {وَ ٱلْبَغْىِ} أي الاستعلاء على الناس والترفع. والحاصل أن الفحشاء هي الإفراط في متابعة القوة الشهوية، فهي إنما ترغب في تحصيل اللذات الشهوانية الخارجة عن إذن الشريعة، وأن المنكر هو الإفراط في إظهار آثار القوة الغضبية السبعية فهي إنما تسعى في الإيذاء إلى سائر الناس وإيصال البلاء إليهم، فالناس ينكرون تلك الحالة، وأن البغي من آثار القوة الوهمية الشيطانية، فهي إنما تسعى في التطاول على الناس والترفع عليهم وإظهار الرياسة والتقدم {يَعِظُكُمْ} أي يأمركم بتلك الثلاثة وينهاكم عن هذه الثلاثة {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} أي لإرادة أن تتذكروا طاعته تعالى؛ وهذا يدل على أن الله تعالى يطلب الإيمان من الكل.

{وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عٰهَدتُّمْ} وهو العهد الذي يلتزمه الإنسان باختياره فيدخل فيه المبايعة على الإيمان بالله وبرسوله وعهد

الجهاد وعهد الوفاء بالمنذورات والأشياء المؤكدة باليمين. {وَلاَ تَنقُضُواْ ٱلأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} بالقصد ففرق بين اليمين المؤكد بالعزم وبين لغو اليمين {وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً} أي شاهداً، فإن من حلف بالله قد جعل الله كفيلاً بالوفاء بسبب ذلك الحلف، وهذه واو الحال أي لا تنقضوا الأيمان وقد قلتم الله شاهد علينا بالوفاء {إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} من النقض والوفاء فيجازيكم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر وفي هذا ترغيب وترهيب {وَلاَ تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ} أي من بعد قوة العزل بفتلها وإبرامها {أَنكَٰثًا} أي أنقاضاً وهو مفعول ثانٍ لنقضت بمعنى جعلت أو حال من عزلها مؤكدة لعاملها أي منكوثاً. قيل: المشبه به معين وهي امرأة في مكة اسمها: رائطة بنت سعد بن تيم. وقيل: تلقب بجعرانة، وكانت حمقاء اتخذت مغزلاً قدر ذراع وسنارة مثل إصبع وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت تغزل الصوف والوبر هي وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن {تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلاً} أي مكراً {بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ} وهو استفهام بمعنى الإنكار.

والمعنى أتصيرون أيمانكم غشاً بينكم بسبب أن أمة أزيد في القوة والكثرة من أمة أخرى؟ قال مجاهد: كان قريش يحالفون الحلفاء ثم إذا وجدوا شوكة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم مع الحلفاء وعاهدوا أعداء حلفائهم {إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِ} أي يعاملكم بالأكثر معاملة من يختبركم لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله أم تغترون بكثرة قوم {وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} في الدنيا أي حين يجازيكم على أعمالكم بالثواب والعقاب {وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ} مشيئة قسر {لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً} متفقة على الإسلام {وَلَٰكِن} لم يشأ ذلك بل شاء اختلافكم لقضية حكمة يعلمها الله ولذلك {يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ}. وروى الواحدي أن عزيراً قال: يا رب خلقت الخلق فتضل من تشاء وتهدي من تشاء، فقال: يا عزير أعرض عن هذا. فأعاده ثانياً، فقال: أعرض عن هذا. فأعاده ثالثاً فقال: أعرض عن هذا وإلا محوت اسمك من النبوة {وَلَتُسْـَٔلُنَّ} جميعاً يوم القيامة {عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} في الدنيا وهذا إشارة إلى الكسب الذي عليه يدور أمر الهداية والضلال.

{وَلاَ تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلاً} أي خديعة {بَيْنَكُمْ} أي لا تنقضوا عهدكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإيمان به وبشرائعه {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا} على الطريق الحق بالإيمان أي فتزلوا عن طاعة الله فإن من نقض عهد الإسلام فقد سقط عن

الدرجات العالية ووقع في الضلالة {وَتَـذُوقُواْ ٱلْسُّـوۤءَ} أي العـذاب في الدنيا {بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ} أي بامتناعكم عن دين اللـه وبصرفكم الناس عنه بأيمانكم التي أردتم بها خفاء الحـق {وَلَكُـمْ} مع ذلك في الآخرة {عَـذَابٌ عَظِيـمٌ} أي غيـر منفـك إذا متـم علـى ذلك {وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ} أي لا تأخذوا بمقابلة بيعة رسول اللـه صلى الله عليه وسلم {ثَمَناً قَلِيلاً} أي عرض الدنيا؛ وكانت قريـش يعدون ضعفة المسلمين على الارتداد بحطـام الـدنيا، أي إنكـم وإن وجدتم على نقض عهد الإسلام خيراً من خيرات الدنيا لا تلتفوا إليـه وإن كان كثيراً، لأن الـذي أعـده الله تعـالى علـى الاسـتمرار علـى الإسلام أفضل مما تجدونه في الدنيا على نقض عهد الإسلام {إِنَّمَـا عِنْدَ ٱللَّهِ} من ثواب الدارين الغنيمـة والثـواب الأخـروي {هُـوَ خَيْـرٌ لَّكُمْ} مما يعدونه {إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} تفاوت ما بين العوضين {مَـا عِندَكُمْ يَنفَدُ} وإن جمّ عدده {وَمَـا عِنـدَ ٱللَّـهِ} مـن خزائـن رحمتـه الدنيوية والأخروية {بَـاقٍ} لا نفـاد لـه. {وَلَنَجْزِيَـنَّ ٱلَّـذِينَ صَـبَرُواْ} علـى مشـاق الـتزام شـرائع الإسـلام {أَجْرَهُـمْ بِأَحْسَـنِ مَـا كَـانُواْ يَعْمَلُونَ} أي بحسب أحسـن أفـراد أعمـالهم. والمعنـى لنعطينهـم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم ما نعطيه بمقابلـة الفـرد الأعلـى منها من الأجر الجزيل؛ وفي هذا من العدة الجميلة باغتفـار مـا قـد يطرأ عليهم في أثناء الصبر من بعض جزع وينظمه في سلك الصبر الجميل. وقرأ ابن كثير وعاصم «ولنجزينهـم» بنـون العظمـة علـى طريقـة الالتفـات. والبـاقون بالياء مـن غيـر التفـات «واللام» لام قسم أي والله ليجزين الله {مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّـهُ حَيَـوٰةً طَيِّبَـةً} فـي الـدنيا فيعيـش عيشـاً طيبـاً فالموسر ظاهر، والمعسر يطيب عيشه بالقناعة، والرضا بالقسمة وتوقع الأجر العظيم، فإن قلب المؤمن منشـرح بنـور معرفـة اللـه تعالى والقلب إذا كان مملوءاً من هذه المعارف لم يتسـع للأحـزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا، أما قلب الجاهل فإنه خالٍ عن معرفـة الله تعـالى فيصـير مملـوءاً مـن الأحـزان الواقعـة بسـبب مصـائب الـدنيا. {وَلَنَجْزِيَنَّهُـمْ} فـي الآخـرة {أَجْرَهُـم بِأَحْسَـنِ مَـا كَـانُواْ يَعْمَلُونَ} أي بجزاء أحسن من أعمالهم.

{فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَ ٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ} أي فإذا أردت قـراءة القـرآن فاسـأل اللـه أن يعصـمك مـن وسـاوس الشيطان المطرود من رحمة الله لئلا يوسوسـك فـي القـراءة، أي فقل: أعوذ بـالله مـن الشـيطان الرجيـم. وهـذا الأمـر للنـدب عنـد الجمهور وللوجوب عند عطـاء وحيـث أمـر النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم بالاستعاذة عند قراءة القرآن فما ظنكم بمن عداه صلى الله

عليه وسلم فيمن عدا القراءة من الأعمال {إِنَّهُ} أي الشيطان {لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ} أي تسلط {عَلَىٰ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} أي وإلى ربهم يفوضون أمورهم وبه يعوذون في كل ما يأتون ويذرون فإن وسوسته لا تؤثر فيهم ودعوته غير مستجابة عندهم {إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُ} أي ولايته بدعوته {عَلَىٰ ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ} أي يطيعونه {وَٱلَّذِينَ هُم بِهِ} أي بربهم {مُشْرِكُونَ} أي والذين هم بسبب حمل الشيطان إياهم على الشرك بالله صاروا مشركين {وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ} أي وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكماً آخر {وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ} من التغليظ والتخفيف في مصالح العباد وما الشرائع إلا مصالح للعباد في المعاش والمعاد فالمصالح تدور. وهذه الجملة اعتراضية بين الشرط وجوابه لتوبيخ الكفرة على كونهم ينسبون رسول الله إلى الافتراء في التبديل وللتنبيه على فساد رأيهم.

{قَالُوۤاْ} أي الكفار من أهل مكة للنبي صلى الله عليه وسلم: {إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ} أي مختلق من تلقاء نفسك. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا نزلت آية فيها شدة، ثم نزلت آية ألين منها تقول كفار قريش والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه اليوم يأمر بأمر وغداً ينهى عنه، وإنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه فأنزل الله تعالى هذه الآية {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} إن الله لا يأمر عباده إلا بما يصلح لهم وإن في النسخ حِكماً بالغة وإسناد هذا الحكم إلى الأكثر لما أن منهم من يعلم ذلك وإنما ينكره عناداً {قُلْ نَزَّلَهُ} أي القرآن {رُوحُ ٱلْقُدُسِ} أي الروح المطهر من الأدناس البشرية وهو جبريل {مِن رَّبِّكَ} يا أكرم الخلق {بِٱلْحَقِّ} أي بالموافق للحكمة {لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} على الإيمان بأن القرآن كلام الله فإنهم إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح اللائقة بالحال رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم {وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ} وهذان معطوفان على «ليثبت»، فهما منصوبان باعتبار محله، ومجروران باعتبار المصدر المؤول.

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ} أي كفار مكة {يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ} أي إنما يعلم محمداً القرآن بشر لا جبريل كما يدّعَى. قال عبد الله بن مسلم الحضرمي: عنوا عبدين لنا أحدهما يقال له: يسار، والآخر جبر وكانا يصنعان السيف بمكة ويقرءان التوراة والإنجيل وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر عليهما ويسمع ما يقرءانه فأجاب الله تعالى عن ذلك بقوله تعالى: {لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ} أي كلام الذي ينسبون إليه عبراني لم يتكلم بالعربية ولم يأتِ بفصيح الكلام وهذا القرآن كلام

عربي ذو بيان وفصاحة، فكيف يعلم محمداً وهو جاءكم بهذا القرآن الفصيح الذي عجزتم عنه؛ وأنتم أهل الفصاحة فكيف يقدر من هو أعجمي على مثل هذا القرآن وأين فصاحة هذا القرآن من عجمه هذا الذي تشيرون إليه؟ فثبت بهذا الدليل أن القرآن وحي أوحاه الله إلى محمد وليس هو من تعليم الذي تشيرون إليه، ولا هو آت به من تلقاء نفسه بل هو وحي من الله تعالى {إِنَّ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ} أي لا يصدقون أنها من عند الله بل يسمونها افتراء أو معلمة من البشر {لاَ يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ} إلى طريق الجنة {وَلَهُمْ} في الآخرة {عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي بل يسوقهم إلى النار {إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ} أي إن المفتري هو الذي يكذب بآيات الله ويقول: إنها افتراء ومعلمة من البشر وهذا رد لقولهم: إنما أنت مفتر وقلب للأمر عليهم ببيان أنهم هم المفترون {وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ} أي الكاملون في الكذب إذ لا كذب أعظم من تكذيب آيات الله تعالى {مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَٰنِهِ} أي من تلفظ بكلمة الكفر من بعد إيمانه به تعالى فعليه غضب من الله. «فمن» موصولة مبتدأ وخبره محذوف لدلالة الخبر الآتي عليه {إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ} على التلفظ بالكفر فتلفظ به بأمر لا طاقة له به كالتخويف بالقتل وكالضرب الشديد، وكالإيلامات القوية مما يخاف على نفسه أو على عضو من أعضائه {وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِٱلإِيمَٰنِ} أي والحال أن قلبه لم تتغير عقيدته وهذا دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب {وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا} أي ولكن من اعتقد الكفر وانشرح به قلباً {فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}. روي أن قريشاً أكرهوا عماراً وأباه ياسراً وأمه سمية على الارتداد فربطوا سمية بين بعيرين وضربها أبو جهل بحربة في فرجها، فماتت وقتل ياسر. وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوا عليه فقيل: يا رسول الله إن عماراً كفر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلا إن عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه» . فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينه. وقال مالك: إن عادوا لك فقل لهم ما قلت فنزلت هذه الآية {ذَٰلِكَ} أي الكفر بعد الإيمان، {بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَىٰ ٱلآخِرَةِ} أي بسبب أنهم رجّحوا الدنيا على الآخرة {وَأَنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ} أي وبأنه تعالى ما هداهم إلى الإيمان وما عصمهم عن الكفر {أُولَٰئِكَ} الموصوفون بتلك القبائح {ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ} فأبت عن التأمل في الحق وإدراكه {وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ} عمّا يراد بهم في

الآخرة من العذاب، فلا غفلة أعظم من الغفلة عن تدبر عواقب الأمور.

{لاَ جَرَمَ} أي حق {أَنَّهُمْ فِى ٱلأُّخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرونَ} حيث صرفوا أعمارهم فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَٰجَرُواْ} إلى المدينة أي ناصرهم {مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ} أي عذبوا. نزلت هذه الآية في عياش بن ربيعة أخي أبي جهل من الرضاعة أو من أمه وفي أبي جندل بن سهل والوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعبد الله بن أسد الثقفي فتنهم المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا. وقرأ ابن عامر «فتنوا» بالبناء للفاعل، أي عذبوا المؤمنين، كعامر بن الحضرمي أكره مولاه جبراً الرومي حتى ارتد ثم أسلما وحسن إسلامهما وهاجروا {ثُمَّ جَٰهَدُواْ} في سبيل الله {وَصَبَرُواْ} على الطاعة والمرازي. {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا} أي من بعد. هذه الأعمال الثلاثة {لَغَفُورٌ} لما فعلوا من قبل {رَّحِيمٌ} فينعم عليهم مجازاة على ما صنعوا من بعد وهذه الآية إن كانت نازلة فيمن أظهر الكفر، فالمراد أن حاله إذا هاجر وجاهد وصبر كحال من لا يكره فلا إثم له في ذلك. وإن كانت واردة فيمن ارتد، فالمراد أن التوبة والقيام بما يجب عليه يحصلان له الغفران والرحمة ويزيلان العتاب. {يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا} فالظرف منصوب برحيم أو بمحذوف أي ذكرهم يوم يأتي كل إنسان يعتذر عن ذاته ويسعى في خلاصه من العذاب كقولهم: هؤلاء أضلونا السبيلا. وقولهم: والله ربنا ما كنا مشركين، ونحو ذلك من الاعتذارات. وروى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال: ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى يخاصم الروح الجسد، فيقول الروح: يا رب لم يكن لي يد أبطش بها ولا رجل أمشي بها ولا عين أبصر بها، فضعف عليه العذاب. فيقول الجسد: يا رب أنت خلقتني كالخشبة ليس لي يد أبطش بها ولا رجل أمشي بها، ولا عين أبصر بها فجاء هذا الروح كشعاع النور فبه نطق لساني وبه أبصرت عيناي وبه مشت رجلاي، فيضرب الله لهما مثلاً: أعمى ومُقعداً دخلا بستاناً فيه ثمار، فالأعمى لا يبصر الثمر والمقعد لا يتناوله فحمل الأعمى المقعد فأصابا الثمر فعلى من يكون العذاب؟ قالا: عليهما، قال الله تعالى: عليكما جميعاً العذاب {وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ} أي وتعطى كل نفس جزاء ما عملت كاملاً {وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} بالعقاب بغير ذنب، وبالزيادة في العقاب على الذنوب.

{وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً} أي جعل الله مثلاً أهل قرية مكة {كَانَتْ ءَامِنَةً} أي كان أهلها ذوي أمن فلا يحتاجون إلى الانتقال عنها بسبب الخوف من العدو، {مُّطْمَئِنَّةً} أي كان أهلها صحاحاً، لأن هواء ذلك البلد لما كان ملائماً لأمزجتهم اطمأنوا إليه واستقروا فيه فلا يحتاجون إلى الانتقال منه بسبب الأمراض {يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ} أي يأتي أهل تلك القرية أقوات واسعة من نواحيها من بر وبحر فلا يحتاجون إلى الانتقال عنها بسبب ضيق الرزق. قالت العقلاء من بحر الرجز: ثلاثة ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفاية {فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ} أي كفر أهلها بنعمه تعالى وهي: نعمة الأمن والصحة والرزق الواسع، {فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَ ٱلْخَوْفِ} أي أذاق الله أهلها ضرر الجوع والخوف من حرب محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فإن الأحوال التي حصلت لهم عند الجوع والخوف نوعان: أحدهما: أنه لما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع والخوف فأشبها الطعام. وثانيهما: أن أثر الجوع والخوف لما اشتد صار كأنه أحاط بهم من كل الجهات فأشبه اللباس، وقد ظهر أثرهما عليهم من الهزال وصفرة اللون، ونهكة البدن، وسوء الحال، وكسوف البال. ويشبه أيضاً أثر الخوف باللباس في الإحاطة واللزوم، وأثر الجوع بالطعام المر البشع في الكراهة. {بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} من تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم وإخراجه من مكة والهمّ بقتله. فالله تعالى ابتلاهم بالجوع سبع سنين، فقطع عنهم المطر وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب الميتة واالعلهز وهو وبر يخلط بالدم والقد وهو جلد الماعز الصغير حتى كان ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع، وأما خوفهم فهو لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبعث إليهم السرايا فيغيرون على من حولهم من العرب فكان أهل مكة يخافونهم، ثم إن رؤساء مكة أرسلوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب في جماعة فقدموا المدينة عليه، وقال له أبو سفيان: يا محمد إنك جئت تأمر بصلة الرحم والعفو وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذن للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون. وهذه الآية نزلت في المدينة، لأن الله تعالى وصف القرية بصفات ست كانت هذه الصفات موجودة في أهل مكة فضربها الله مثلاً لأهل المدينة يحذرهم أن يصنعوا مثل صنيعهم فيصيبهم مثل ما أصابهم من الجوع والخوف، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بالقتال وهو بمكة وإنما أمر بالقتال لما

هاجر إلى المدينة، فكان يبعث السرايا إلى حول مكة يخوفهم بذلك وهو بالمدينة. {وَلَقَدْ جَآءَهُمْ} أي جاء أهل تلك القرية وهي مكة {رَسُولٌ مِّنْهُمْ} أي من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه، فأخبرهم بوجوب الشكر على النعمة، وأنذرهم سوء عاقبة ما يأتون وما يذرون {فَكَذَّبُوهُ} في رسالته {فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ} بالجوع الذي كان بمكة {وَهُمْ ظَٰلِمُونَ} أي والحال أنهم كافرون بتكذيب رسول الله {فَكُلُواْ} يا معشر المسلمين {مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ} أي من الغنائم {حَلَٰلاً طَيِّباً} أي إنكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب، وهو الغنيمة، واتركوا الخبائث، وهي الميتة والدم {وَ ٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ} أي واعرفوا حقها ولا تقابلوها بالكفران {إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} أي تطيعون {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَ ٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخَنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ} فهذه الآية دالة على حصر المحرمات في هذه الأربع: فالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع داخلة في الميتة، وما ذبح على النصب داخل تحت قوله تعالى: {وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ}. {فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي فمن دعته ضرورة المخمصة إلى تناول شيء من ذلك غير ظالم على مضطر آخر ولا متجاوز قدر الضرورة وسد الرمق، فالله لا يؤاخذه بذلك {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ} أي ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لأجل ذكر ألسنتكم الكذب ولتعودها به {لِّتَفْتَرُواْ عَلَىٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ} وهذا بدل من التعليل الأول أي إنهم كانوا ينسبون ذلك التحليل والتحريم إلى الله تعالى ويقولون: إن الله أمرنا بذلك. {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَىٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ} في أمر من الأمور {لاَ يُفْلِحُونَ} أي لا يفوزون بخير لا في الدنيا ولا في الآخرة {مَتَٰعٌ قَلِيلٌ} أي منفعتهم في أفعال الجاهلية منفعة قليلة {وَلَهُمْ} في الآخرة {عَذَابٌ أَلِيمٌ} {وَعَلَىٱلَّذِينَ هَادُواْ} خاصة {حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ} يا أشرف المرسلين {مِن قَبْلُ} أي من قبل تحريمنا على أهل ملتك ما عدا ذلك من المحرمات وهو الذي سبق ذكره في سورة الأنعام {وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ} بتحريم ذلك {وَلَٰكِن كَانُوۤاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} حيث فعلوا ما يؤدي إلى ذلك التحريم {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوۤءَ} أي الكفر والمعاصي {بِجَهَٰلَةٍ} أي بسبب جهالة، لأن أحداً لا يختار الكفر ما لم يعتقد كونه حقاً، ولا يفعل المعصية ما لم تصر الشهوة غالبة للعقل فكل من عمل السوء يكون بسبب الجهالة. {ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ} أي عمل السوء {وَأَصْلَحُواْ} بأن آمنوا وأطاعوا الله {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا} أي التوبة {لَغَفُورٌ} لذلك السوء {رَّحِيمٌ} يثيب على طاعتهم تركاً

وفعلاً أي لما بالغ الله في تهديد المشركين على أنواع قبائحهم من إنكار البعث والنبوة وكون القرآن من عند الله، وتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه بين الله أن أمثال تلك القبائح لا تمنعهم من قبول التوبة وحصول المغفرة والرحمة إذا ندموا على ما فعلوا وآمنوا فالله يخلصهم من العذاب {إِنَّ إِبْرٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً} على انفراده لكماله في صفات الخير وجمعه الفضائل، وهو رئيس أهل التوحيد، لأنه كان مؤمناً وحده والناس كلهم كانوا كفاراً ولذلك وصفه بتسع صفات. {قَٰنِتًا لِلَّهِ} أي مطيعاً له تعالى قائماً بأمره. {حَنِيفًا} أي مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق لا يزول عنه {وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ} في أمر من أمور دينهم فإنه كان من الموحدين في الصغر والكبر. {شَاكِراً لانْعُمِهِ}.

روي أن إبراهيم عليه السلام كان لا يتغذى إلا مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً، فأخر غذاءه، فإذا هو بقوم من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام فأظهروا أن بهم علة الجذام، فقال: الآن يجب علي مؤاكلتكم فلولا عزتكم على الله تعالى لما ابتلاكم بهذا البلاء. { ٱجْتَبٰهُ} أي اصطفاه للنبوة {وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أي هداه في الدعوة إلى طريق موصل إلى الله تعالى وهو ملة الإسلام. {وَءاتَيْنٰهُ فِى ٱلْدُّنْيَا حَسَنَةً} أي ولداً صالحاً وسيرة حسنة عند كل أهل الأديان، فجميع الملل يترصون عن إبراهيم ولا يكفر به أحد. {وَإِنَّهُ فِى ٱلاٌّخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ} أي لمن أصحاب الدرجات العالية في الجنة {ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ} يا سيد المرسلين مع علو طبقتك {أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ} أي في كيفية الدعوة إلى التوحيد وهو أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة وإتيان الدلائل مرة بعد أخرى بأنواع كثيرة على ما هو الطريقة المألوفة في القرآن {حَنِيفًا} أي مائلاً عن الباطل حال من إبراهيم، {وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ} وهذا تكرير لما سبق لزيادة تأكيد في الرد على المشركين حيث زعموا أنهم كانوا على ملة إبراهيم. {إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَىٰ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ} أي إنما فرض تعظيم يوم السبت على الذين خالفوا نبيهم موسى عليه السلام لأجل يوم السبت، فإن أهل الملل اتفقوا على أنه تعالى خلق العالم في ستة أيام، وبدأ تعالى بالتكوين من يوم الأحد، وتمَّ في يوم الجمعة. وكان يوم السبت يوم الفراغ فأمر سيدنا موسى عليه السلام اليهود أن يعظموا يوم الجمعة كما هو ملة إبراهيم عليه السلام بالتفرغ للعبادة فيه وترك الأشغال، فيكون عيداً، فخالفوا كلهم وقالوا: نحن نوافق ربنا في ترك الأعمال، فاختاروا السبت، فأذن الله تعالى لهم فيه وشدّد عليهم بتحريم الاصطياد

فيه. وقالت النصارى: مبدأ التكوين هو يوم الأحد فنجعل هذا اليوم عيداً لنا وقد جاءهم عيسى عليه السلام بالجمعة أيضاً فقالوا: لا نريد أن يكون عيد اليهود بعد عيدنا، واتخذوا الأحد عيداً لهم وقلنا معشر الأمة المحمدية: يوم الجمعة هو يوم الكمال فحصول التمام يوجب الفرح الكامل، فهو أحق بالتعظيم، وبجعله عيداً. وأيضاً إن الله تعالى خلق في يوم الجمعة أبَا البشر آدم عليه السلام وهو أشرف خلقه وتاب عليه فيه فكان يوم الجمعة أشرف الأيام لهذا السبب، ولأن الله تعالى اختار يوم الجمعة لهذه الأمة ولم يختاروه لأنفسهم. {وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} في الدين فإنه تعالى سيحكم للمحقين بالثواب وللمبطلين بالعقاب. { ٱدْعُ} يا أشرف الرسل من بعثت إليهم من الأمة قاطبة {إِلِىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ} أي إلى دينه {بِ ٱلْحِكْمَةِ} أي الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية وهذه أشرف الدرجات، وهي التي قال الله تعالى في صفتها: {وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا} (البقرة:) {وَ ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ} أي الأمارات الظنية والدلائل الإقناعية {وَجَٰدِلْهُم بِ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ} أي بدليل مركب من مقدمات مقبولة فالناس على ثلاثة أقسام:
الأول: أصحاب العقول الصحيحة الذين يطلبون معرفة الأشياء على حقائقها.
والثاني: أصحاب النظر السليم الذين لم يبلغوا حدّ الكمال ولم ينزلوا إلى حضيض النقصان. والثالث: الذين تغلب على طباعهم المخاصمة لا طلب العلوم اليقينية فقوله تعالى: { ٱدْعُ إِلِىٰ سَبِيلِ رَبّكَ بِ ٱلْحِكْمَةِ} الخ. معناه: ادع الأقوياء الكاملين إلى الدين الحق بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الأشياء بحقائقها، وهم خواص الصحابة وغيرهم. وادع عوام الخلق بالدلائل الإقناعية الظنية؛ وهم أرباب السلامة، وفيهم الكثرة، وتكلّم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل؛ وهي التي تفيد إفحامهم وإلزامهم. والجدل ليس من باب الدعوة، بل المقصود منه قطع الجدل عن باب الدعوة، لأنها لا تحصل به أي ولما أمر الله محمداً صلى الله عليه وسلم باتباع إبراهيم بين الشيء الذي أمره بمتابعته فيه وهو أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة وهي الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالطريق الأحسن. {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ} الذي أمرك بدعوة الخلق إليه وأعرض عن قبوله {وَهُوَ أَعْلَمُ بِ ٱلْمُهْتَدِينَ} إليه أي إنك مكلف بالدعوة إلى الله تعالى بهذه الطرق الثلاثة، وحصول الهداية لا يتعلق بك فإنه تعالى هو العالم بضلال النفوس المظلمة الكدرة وباهتداء النفوس المشرقة

الصافية {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ} أي إن أردتم المعاقبة {فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} أي بمثل ما فعل بكم ولا تزيدوا عليه. وقد مر أنه تعالى أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بأحد الطرق الثلاثة وتلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم، وبالحكم عليه بالضلالة وذلك مما يشوش قلوبهم ويحمل أكثرهم على قصد ذلك الداعي بالقتل تارة وبالضرب ثانياً، وبالشتم ثالثاً، ثم إن ذلك الداعي إذا عرف ذلك يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء بالقتل أو بالضرب، فعند هذا أمر الله الداعي في هذا المقام برعاية العدل وترك الزيادة ظلم وهو ممنوع في عدل الله ورحمته والله تعالى أمر في هذه الآية برعاية الإنصاف فيدخل فيها ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى عمه حمزة قد مثل به المشركون في أحد فقطعوا أنفه وأذنيه وذكره وأنثييه وفجروا بطنه قال: «لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك» فنزلت هذه الآية فكفر عن يمينه وكف عما أراده {وَلَئِن صَبَرْتُمْ} عن المعاقبة بالمثل {لَهُوَ} أي الصبر {خَيْرٌ لَّلصَّبِرِينَ} لأن الرحمة أفضل من القسوة والنفع أفضل من الإيلام.

والمقصود من هذه الآية تعليم حسن الأدب في كيفية الدعوة إلى الله تعالى وطلب ترك الزيادة من الظالم وهذا ليس بمنسوخ {وَ ٱصْبِرْ} على ما أصابك من جهتهم من فنون الأذية {وَمَا صَبْرُكَ} بشيء من الأشياء {إِلاَّ بِٱللَّهِ} أي بذكره وبالاستغراق في مراقبة شؤونه تعالى وبالتبتل إليه تعالى بمجامع الهمة {وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} أي الكافرين بسبب إعراضهم عنك واستحقاقهم للعذاب الدائم {وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ} أي غم. وقرأ ابن كثير بكسر الضاد {مِّمَّا يَمْكُرُونَ} أي من مكرهم بك في المستقبل فالضيق إذا قوى صار كالشيء المحيط بالإنسان من كل الجوانب {إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّ ٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} وهذا يدل على أن كمال السعادة للإنسان في هذين الأمرين التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله. والمراد بالمعية هي بالرحمة والفضل والرتبة.